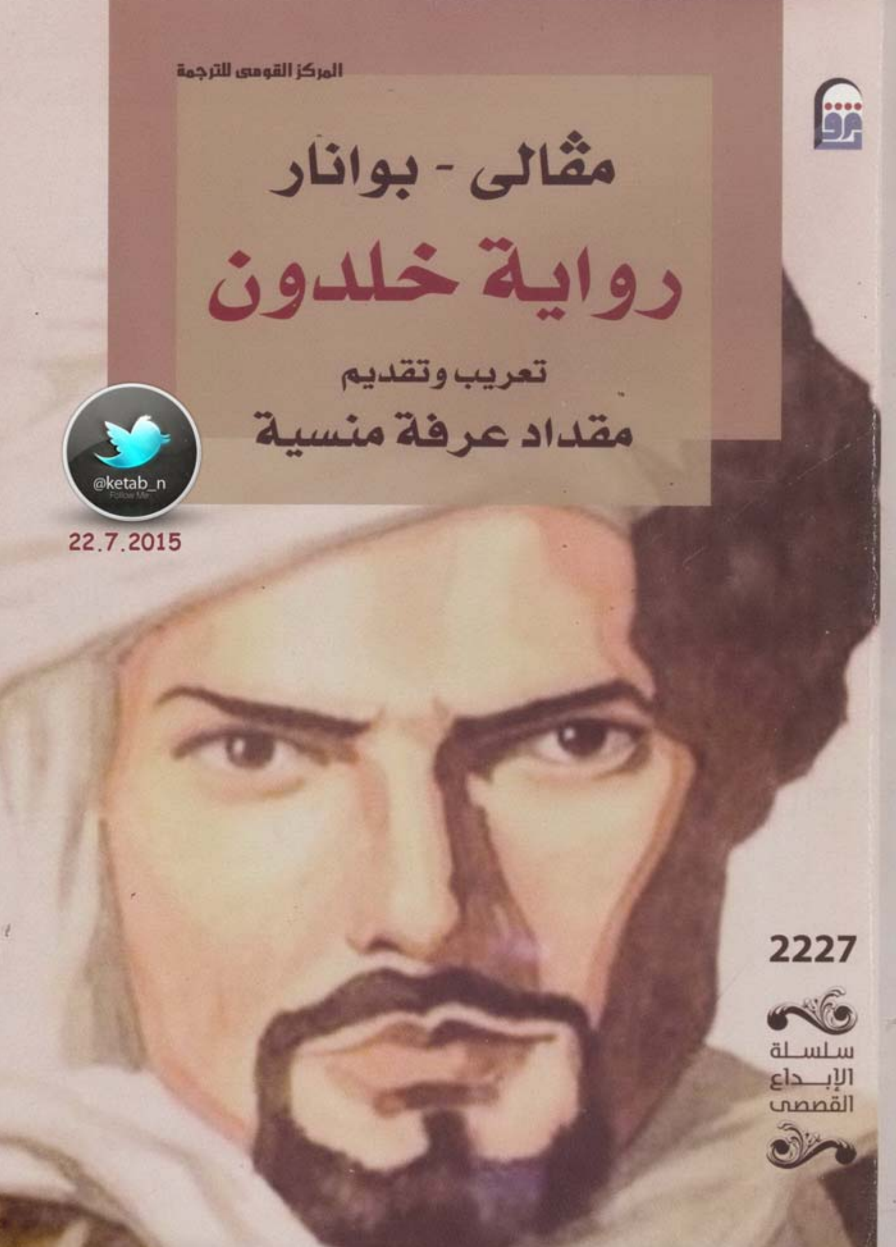


المركز القومى للترجمة
مڤالى - بوانار
رواية خلدون
تعريب وتقديم
مقداد عرفة منسية
@ketab_n
22.7.2015
2227
سلسلة الإبداع القصصى

رواية خلدون

تـأليـف: مڤالى- بوانار

تعريب وتقديم: مقداد عرفة منسية



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2227
- رواية خلدون
- مثالى- بوانار
- مقداد عرفة منسية
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

Le Roman de Khaldoun

Par: Magali Boisnard

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail; nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مفالى.

رواية خلدون/ تأليف: مفالى، بوانار؛ تعريب وتقديم: مقداد عرفة منسية. ـ الجيزة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.

٢٢٨ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ٠ ٦١٠ ٧١٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص ـ مجموعات.

١ ـ بوانار (مؤلف مشارك)

٢ ـ منسية، مقداد عرفة (مترجم ومقدم)

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٦٥/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 718 - 610 - 0

ديوى ٨٠٨,٨٣

المحتويات

تقديم للمترجم

رأينا أن نضع بين يدى القارئ العربى رواية «خلدون» للكاتبة مڤالى بوانار (Magali-Boisnard)، والكلمتان الواردتان فى العنوان "رواية" و"خلدون" تُبرّران اختيارنا؛ أى إنّ الدّافع هنا هو من ناحية الأهمّية التى تكتسيها شخصيّة البطل الذى تدور حوله أحداث الرّواية، أى ابن خلدون، ومن ناحية ثانية كوْن الكتاب روايةً تضفى حيويّة على سِيرته وتسعى إلى أن تقدّم لنا صورة حيّة له بوصفه إنسانا، كما تصوّرته الكاتبة، بأفكاره ومشاعره وأفعاله واختياراته ودوافعه وتعامله مع شخصيّات بارزة فى السّياسة أو فى العلم فى خضمّ الأحداث التى طبَعت المغرب والمشرق الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى.

كاتبة القصّة هى السيّدة مڤالى بوانار، زوجة الطّبيب پيار كريسپان (Pierre Crespin) الذى عاش بالأوراس فى الجزائر.

ولدت الكاتبة بفرنسا سنة ١٨٨٢ وقضت حياتها بجنوب الجزائر وفى بسكرة بصفة خاصّة، وقد سكنتها منذ ١٩١١. وتوفّيت سنة ١٩٤٥.

تعلّمت اللّغة العربيّة وشغفت بتاريخ المغرب والحياة فى الصّحراء، واهتمّت فى كتاباتها بالعالم الإسلامى والنّساء بصفة خاصّة.

وتُعتبر من المؤلّفين المهمين الذين كتبوا بالفرنسيّة فى عهد الاستعمار، ولعلّها أهمّ كاتبة امرأة فى تلك الفترة بالجزائر، وقد نالت الجائزة الأدبيّة بها، وكان توجّهها الإيديولوجى القول بانصهار الجزائريّين، والإسلام لم يكن يمثّل فى نظرها مانعًا فى ذلك، وهى تنتمى إلى الحركة الجزائرانيّة (Algérianisme) الحركة الأدبيّة التى ظهرت بالجزائر فيما بين الحربيّن العالميّتيّن، وهى حركة تابعة للأدب الاستعمارى وكان أكبر منظّر لها روبار راندو (Robert Ran-deau)، وكانت تذهب إلى أنّ الهويّة الجزائريّة هى من أصل لاتينىّ بالأساس، فيها بعد شمال إفريقى لا يتجاوز مجرّد إثبات الذّات فى مقابل العاصمة المركز، أمّا البعد العربى الإسلامى لشمال إفريقيا فلا يدخل فى الاعتبار(١) لكن الكاتبة كانت تذهب إلى أنّ استيعاب العرب فى المسيحيّة أمر مستحيل.

---

1 - Charles BONN, "Le roman algérien. Extrait de Littérature francophone. Tome 1: Le Roman. Ouvrage collectif sous la direction de Charles Bonn et Xavier Garnier, Paris, Hatier, 1997, pp. 185-210.

ألّفت مقالى بوانار كتابات كثيرة جلّها روايات، ومنها:

- Nos soeurs musulmanes و Dans l'Aurès barbare، سنة ١٩٠٨، وقد جَمَعتْهما فى مجلّد واحد عنوانه: Les endormies نشرته سنة ١٩٠٩[٢].

- La Vandale, Edition E. Sansot Et Cie, 1907

- Mâadith, Librairie Edgar Malfère, Amiens 1921. وهى رواية تتعلّق بالإسلام فى منطقة القبائل بالجزائر.

- Lenfant taciturne, Librairie Edgar Malfère, Amiens, 1922

- Le Roman de la Kahena. D'après les anciens textes arabes, L'Edition d'Art H. Piazza, Paris, 1925

- Le Roman de l'Emir Seif d'après les anciens textes orientaux, Paris, Piazza, 1925

- Les Visions d'Algérie, 1929

- Le Roman de Khaldoun, L'Edition d'Art H. Piazza, Paris, 1930

---

٢ - راجع مقال: Messaouda YAHIAOUI, Regards des romancières françaises sur les sociétés féminines d'Algérie, 1898-1960, المنشور في: Regards sur les littératures coloniales: Afrique francophone:

وهو هذا الكتاب الذى ننقله هنا إلى العربيّة[٣]

- Sultans de Touggourt, Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1933 .

ولها دواوين شعر ومنها:

- Les Rimes du bled

- Riahn.

- Eve et le palmier. Poème de l'oasis, Ed. Edgar Malfère, 1929.

- Le Chant des femmes: Poèmes de guerre et d'amour, Perrin, Paris, 1917.

ولها دراسات، منها:

- L'alerte au désert: la vie saharienne pendant la guerrel 1914-1916

وهو مقال صدر فى Revue des Deux Mondes سنة ١٩١٦.

- "L'Aurès barabre" صدر فى Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et d'Afrique du Nord، عدد ١٢، سنة ١٩٠٨.

---

٣ - راجع عنه تقديمًا لـ Louis Groisard في مجلّة L'Algérianiste،

- "La vie singulière d'Ibn Khaldoun. Historien des Arabes et des Berbères".

صدر فى Bulletin de la Société Géographique d'Alger et d'Afrique du Nord، مجلد ٣٤، سنة ١٩٢٩، ص ٤٩٧ - ٥١٢.

- "L'inquiète Byzance africaine" صـــدر فى Bulletin de la Société Géographique d'Alger et d'Afrique du Nord، مجلّد ٣٩، سنة ١٩٣٤، ص ٣٨٩ - ٤٢٦.

- En Terre d'Islam L'Islam et l'Afrique du nord، صـــدر فى La revue française du monde musulman, 2 è et 3è trim. 1940, 3è série, N° 10-11.

ولها ترجمات ومنها من الإيطاليّة:

- Dr. Enrico INSABATO, L'Islam et la politique des Alliés. L'Islam mystique et schismatique. Le problème du khalifat, Berger-Levrault, Nancy, 1920 .

كُتِبت رواية خلدون هذه فى نهاية العشرينيات، وكانت مؤلّفات ابن خلدون آنذاك قد نُشرت وتُرجمت وظهرت عديد الدّراسات المتعلّقة بها، والمؤلّفة نفسها نشرت سنة ١٩٢٩ المقال عن حياة ابن خلدون المذكور أعلاه وهو: "La vie singulière d'Ibn Khaldoun, historien des Arabes et des Berbères" (حـيـاة ابن خـلـدون الفذّة. مؤرّخ العرب والبربر). ولم تُردْ صاحبتها أن تتحدّث عن ابن

خلدون كما يتحدّث الباحثون المختصّون عنه، وإنّما أرادت أن تُصوّره وهو حيّ وفاعل على حدّ ما تراه وكأنّه ما زال باقيًا فى شمال إفريقيا فى أفق بِسْكرَة التى كان يُحبّها ويفضّلها على غيرها. وذكرت المؤلّفة أعمال المستشرقين فى القرن التّاسع عشر[٤] ونوّهت بفضلهم فى إرجاع ابن خلدون إلى الظّهور، ولكنّها عابت عليهم أنّهم قدّموه وكأنّه محنّط أحْكم رباطه، ولم يَصِفوه على حقيقته فى حرّيته واستقلاله وعظمته وعبقريّته، وهى وإن سعت إلى أن تسرد أهمّ الجوانب فى سيرته، فقد عمدت إلى إعمال الخيال لتقدّم لنا مشاهد حيّة منها.

وتستعيد الرّواية فى غالبها ما ورد بصفة موجزة فى هذا المقال، بالاعتماد على ما ترجم به ابن خلدون لنفسه فى كتاب التّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا وبعض ما ورد فى المقدّمة وفى كتاب العِبَر، ومصادر أخرى لا حاجة إلى ذكرها نظرًا إلى أنّها استُعملت بصفة ثانوية، وهناك فقرات كاملة من المقال وردت كما هى فى الرّواية.

---

٤ - شولتس (F. E. SCHULTZ) سنة ١٨٢٥، سلفاستر دي ساسي (SIL-VESTRE DE SACY) همّار (HAMMER) مونبري (COQUEBERT DE MONTBRET FILS, E.) من سنة ١٨٢٤ إلى سنة ١٨٢٧، وكاترومار (QUATREMERE) البارون دي سلان (BARON DE SLANE).

هـى إذن رواية تعتمد معطيات التّاريخ لتقدّمها بطريقة تضفى عليها الحيوية؛ ملحوظة لذلك كان من الطّبيعى أن يرد فيها جانب من وحى الخيال، ووردت مطابقة فى معظمها للمصادر وفى جزء منها مخالفة لها، وتتمثّل هذه المخالفة الموجودة بين الرّواية ومعطيات التّاريخ فى طريقة تقديم مجريات حياة ابن خلدون وفى انتقاء عناصر منها دون أخرى لتأليف الرّواية، وقد أشرنا أحيانًا إلى نقاط الاختلاف وأهملنا ذكرها أحيانًا أخرى؛ إذ ليس همّنا هنا هو تصحيح ما ورد فى الرّواية. ويبقى فى وُسع القارئ، إن شاء، أن يقوم بذلك بالرّجوع إلى كتاب التّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا[٥] و تاريخ ابن خلدون والإحاطة فى أخبار غرناطة[٦] للسان الدّين بن الخطيب ونفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب[٧] للمَقّرىّ التّلمسانىّ.

وقد بذلنا قُصارى جهدنا فى أن تكون التّرجمة وفيّة، ولم نتصرّف إلاّ قليلاً وذلك بالرّجوع إلى كلام ابن خلدون نفسه، ولم نرَ

٥ - وقد ترجمه دى سلان لأوّل مرّة، انظر: William MACGUCKIN, Baron De Slane, "Autobiographie d'Ibn Khaldoun", in Journal Asiatique, Paris, 4è série, III, 1844, p. 5-60, 187-210, 291-308, 325-353.

٦ - تحقيق محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م. المجلّد ٣، ص ٤٩٨ - ٥١٦.

٧ - تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، المجلّد ٢، ص ٥٢١ - ٥٢٣ (فيما يخصّ لقاء ابن خلدون وتيمورلنك الشّهير).

أن نُناقش الكاتبة فى طريقتها فى ذكر الأسماء مثل قولها: "خلدون" و"خلد" بدلاً عن ابن خلدون، و"خطيب" بدلاً عن ابن الخطيب، وحذف "أبو" من الكنى، ولم نصحّح إلاّ ما رأينا فيه تحريفًا حقيقيًا.

ولا يقتصر الكتاب على تقديم روائى لحياة ابن خلدون، وإنّما نجد فيه كذلك عرضًا لعدد من أفكاره حسب ما فهمته المؤلّفة، ولم تعد هناك حاجة إلى مناقشتها نظرًا إلى أنّها أتت فى فترة متقدّمة نسبيًا من الدّراسات الخلدونيّة.

وقد قسّمت الكاتبة هذه الرّواية إلى أربعة أقسام كبرى، فى كلّ واحد منها عدد من الفُصول. وتُعتبر هذه الأقسام أربع مراحل فى حياة ابن خلدون. ويمكن فى الوقت نفسه أن نرى فيها جوانب أربعة لهذه العبقريّة:

١ - النّديم.

٢ - النّصير.

٣- المؤرّخ.

٤- القاضى المالكىّ.

تمهيد: نبذة مقتطفة[8]

«مؤرّخ فذّ من بين المؤرّخين العرب، يسمو على كلّ شىء، إنّه عبقرى حقًا».

«يجب تحديد زمانه... ٧٣٢ - ٧٨٤ هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م... وهو زمان يعود بنا فى بلادنا فرنسا إلى حرب المائة سنة زمن "فرْوَاسّار" الشّاعر والمؤرّخ فى نهاية العصر الوسيط».

«كان شخصيّة أدبيّة فذّة، وُهِبَ القدرة على النّظر والتّحليل ونقل الصّورة الوفيّة. ليس ابن خلدون مجرّد اسم غلب عليه النّسيان، إنّما هو كائن بشرىّ».

---

٨ - من: Emile-Félix GAUTIER, L'islamisation de l'Afrique du Nord. Les Siècles obscurs du Maghreb, Paris, 1927, chap. 2: Ibn Khaldoun, p. 53-75.

«حقًا كانت حياته مضطربة، وقد قضاها على التّتالى فى معظم مدن العالم الإسلامى جنوب البحر الأبيض المتوسّط، وكان أقصاها غرناطة واشبيلية من جهة، والقاهرة ودمشق من جهة أخرى. وتركّز تجواله بصفة خاصّة على شمال إفريقيا، وبصفة أخصّ بين بسكرة وتلمسان».

«ينتمى إلى صنف المؤرّخين النّبلاء.. ولم يخصّص من حياة دامت سبعين سنة إلاّ ثمانى سنين - بين الثّانية والأربعين والخمسين - لتحرير عمل أساسىّ فى ستّة أو سبعة مجلّدات ضخمة مفعمة بالأحداث، وفيما تبقّى من ذلك عاش ابن خلدون حياة خطر وشغف سعيًا وراء السّلطة والنّفوذ».

«ليس التقلّب علامة مميّزة للرّجل (وحده)، وإنّما لجنسه وللمجتمع الذى عاش فيه (أيضًا)».

"لم يكن له اتّصال البتّة بمؤرّخينا ولم يُمكنه التعلّم فى مدرستهم، فليس ببعيد إذن أن نقول إنّه اخترع من جديد ما يسمّيه الغربيّون تاريخًا منذ هيرودُوت، واخترعه لغرضه الخاصّ بقوّة عبقريّته».

استهلال

امتدّ ظلّ الصّومعة فوق فناء الدّار وانساب بين الرّجلين اللّذين كانا منشغلين بلُعْبة الشّطرنج، وكانت فسيْفساءُ المِنضدة تحت رقعة الشطرنج تلمع لمعانًا مزهرًا كلمعان الأفنية والسّاحات والمحارب والأحواض والفسقيّات وأماكن المسجد المخصّصة للخشوع والصّلاة والتّعليم والاجتماع. وخيّم على القاهرة مساء اختلط فيه اللّونان الأحمر والأشقر، وكأنّه انبعث من الصّحارى القريبة.

كانت حركات الرّجلين بطيئة، تنمّ عن دُرْبة وعن عُمر قارب الشيخوخة. تربّعا وانكبّا على طبق المنضدة المقسّم إلى مربّعات، وكانا يحرّكان قطع العاج والآبنوس ذات الشكل المخروطيّ، بحركات مركّبة تدلّ على دراية ومعرفة.

- خلدون! ما رهاننا اليوم فى لعبتنا هذه؟

- هو الرّهان الوحيد الذى نرتضيه أنا وأنت: لقبُ قاضى القُضاة المالكيّة بمِصّر والوظائف التى تتبعُه.

- فزتُ أنا مرّة أولى، وقد مرّ على ذلك ثلاث سنوات.

- ولمّا كان الغد ثأرتُ لنفسى.

- وفزت أنا ثانية، وقد مرّ على ذلك ربيعان.

- وأنا كان نصيبى فى الخريف الماضى.

- ... وعُدّتَ لتخسر من جديد بعد مضىّ عدّة شهور.

- قد حان دورى إذن للمرّة الثالثة!

وانهمك الرّجلان فى حسابات إستراتيجيّة.

فجأة ضحك خلدون ضحكة خاطفة، وكأنّها ضحكة صبىّ.

- بساطى[٩]، أيا بساطى، تُرى هل يُخامر خليفَتنا وسفراءَنا من القاهرة الطّيّبين وأصدقاءنا أدنى شكّ فى ما تختصّ به لعبتُنا هذه من لذّات عجيبة ومن نتائج جليلة، وهم الآن مندهشون من القدرة على الحلّ والعقد التى يعْزون إليها تداولنا على هذا المنصب؟

---

٩ - يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم... جمال الدّين البساطى تداول هو وابن خلدون على القضاء بمصر مرارًا ابتداء من سنةَ أربعة وثمانمائة (ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، عارضه بأصوله وعلّق حواشيه محمّد بن تاويت الطنجى، القاهرة،

Twitter: @ketab_n

- بارك الله جهلهم! وأتمنّى أن لا يتعرّف عليهم تلامذتنا وأنصارنا والمعجبون بنا، اعتبارًا إلى ما يحيط بخطّتنا وبمنصبنا من مجد ويلازمهما!

قام البِساطي بمناورة رهيبة لا تخلو من مجازفة، قام بها بعناية تامّة بعد أن أدركه اليأس من الظّفر. عضّ خلدون على شفّته وقد رسمَتْ لحيتُه البيضاء خطّها الجميلَ:

- هيّا، العب.

- الآن دورك، فأنت لاعب ذائع الصّيت!

- سواء حملتُ كلامك هذا على الملامة أو على الثّناء، فقد قيل لي هذا مرارًا، وتمرْلنك خَبَرَ ذلك منّي، بعد أن خَبَره كثيرون غيره، كانت مائدته رائعة فيها ما لذّ وطاب من الأطعمة والأشربة، وفيها الحساء السّاخن يتصاعد منه البُخار، وفيها تُسقى الجعَة ولبَنَ الفرس، وكان الرّهان آنذاك: دمشق وحرّيتي!...

انتهز البساطي حالة الذهول التي انتابت خلدون وقد واصل حديثه قائلاً:

- إنّي أفكّر في أهمّية الموائد ونتائجها... أطراف الحديث التي يتبادلها الضيوف والتي تتخلّل الأشربة والأطعمة تصلح لأن تكون أخبارًا تدوّن للتّاريخ... يفشي المدعوّون أسرارًا ويبوحون بها فتجول بينهم كما تجول الزنابير والذباب فوق الغلال.

- ها أنا أهزمك!

- كان ذهنى يُراجع مجرى الأحداث وسَيْرَ الزّمان...

- كم سِنّك، وأنت تزعم أنّك عشْت كلّ هذا القدْر؟

- ستّون صيفًا وأربعة عشر خريفًا.

- يا لهذه النّظرة التى ترْنو بها صوْب المَغْرب، لهى نظرة مُحبّ وَلْهَان فى عنفوان الصّبا!

- لا، إنّما هى نظرة فيها شىء من الإرهاق، ترنو عن طيبة خاطر نحو مغيب الشمس ومغربها... هيّا العب.

مَرْمَا جنّة

يا لَلهلع، يا لَلهزيمة.

- لوذُوا بالفرار، يا أهل تونس!

كان الجوادان يعْدوان جنبًا إلى جنب وكان يمتطيهما فارسان اكتنفهما ظلام اللّيل وسط أشباح أخرى.

- اِسرع، أيّها السّلطان الصغير!

- فرسى، خارت قواها...

- المهماز، بكلّ ما أوتيت من قوّة...

- ضاع منّى المهماز...

كان للكلمات صفير، وكانت مقطّعة تبعًا لِوَقْع أقدام الجيش المشتّت فى إدباره، وَوَطْء حوافر الخيول المضطرب.

كان الجوادان يعدوان جنبًا إلى جنب، وكان يمتطيهما أبو إسحاق ملك تونس وخلدون صفيّه وأحبّ النّاس إليه، كاتب العلامة السّلطانيّة، وكان عمر الأوّل عشر سنين وعمر الثانى عشرين سنة.

ما السّلاطين فى حقيقة الأمر إلاّ شكّات جوفاء يتقمّصها الوزراء لاقتراف أشنع الأفعال وأفظعها، من اغتيال وقسوة وعدوان، ولم يَعُد الوزير التّونسى أبو محمّد بن تَافْرَاكِين[١٠] يخلع مثل هذه الشكّة، وهى أكبر حجمًا من الأمير الصّغير، وكان الوزير قد نصّبه على العرش بكلّ وقاحة وفظاظة، - أمير صغير السنّ من سلالة الحفصيّين، ولو كان بمفرده ما كان ليطمع فى الاستيلاء على هذا الإرث الذى سبق أن استولى عليه إمبراطور مَرِينى كان قد قَدِم من فاس، ولمّا رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيّارهم عن إفريقيّة تَسَتّر الوزير خَلْف هذا الطّفل ليحكم ويستبدّ على الدّولة، كان النّاس كافّة يَمْقُتُونه أشدّ ما يكون المقت.

وأبت قبائل الجنوب أن تَدِينَ له بالولاء، واستنجد أهلها بالأمير أبى زيد صاحب قسنطينة، وعرضوا عليه الدّخول فى ولائه على أن يفتك تونس، عرضوا عليه هذه الثمرة العذبة وهذا القدح الملىء حتّى الجمام، عرضوا عليه الرّبوع النّاعمة بدلاً من وكره الوعر

١٠ - هو أبو محمّد بن تافْراكين الذى كان صاحب الدّولة والمستبدّ عليها

الخشن فوق الصّخور والسّيول، فشرع صاحب قسنطينة فى حملته ونهض إلى تونس فى عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل.

وما أن أدرك الوزير المستبدّ على الدّولة أنّ الخطر وشيك، وأنّه لا مردّ له، أخرج سلطانَه مع العرب أولاد أبى اللّيل، وبثّ العطاء فى عسكره، وتحرّك به ليواجه العدوّ، وخرج به من تونس ووضع فى المقدّمة الطفل-الملك مع صفيّه اليافع[11]، وقد صار الآن فى غنى عنه.

ونزل بلاد هوّارة، ودارت رحى الحرب فى الحقول بفَحْص مَرْمَاجَنّة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض فكان الالتحام الأوّل والحاسم، وانهزم صفّ تونس، ومَحَقَ مُشاة الصّخرة وفرسانُ السّهوب كتائبَ أهمل تَنْظيمُها فى مملكة أُسىء تدبيرُها، وافترسوها كما تفترس الذّئاب الجائعة قطيعًا من الماعز أهمله أصحابه.

والآن انصرف الجيش الغالب إلى نصب خيامه بين أكوام من جثث الموتى وأجسام المحتضرين، وبين فلول جيش ولّى الادْبَار وبدأ صداه يتلاشى فى البعد...

أنهكت فرسُ السّلطان والْتَهَبت حوافرُها واتّسع منْخراها الملطّخان بالدّم والغبار، وكان يخرج منهما صوت شبيه بأصوات

١١ -كان ذلك أوّل سنة ثلاث وخمسين (التّعريف، ص ٥٥- ٥٦) .

بعيدة تطلقها أبواق الإنذار، وفجأة تأخّر عنها الحصان الذى كان يركض إلى جنبها، لقد تخلّى الصفىّ عن الملك المهزوم وكفّ عن شدّ أزره[١٢].

- خلد، خلدون... صديقى...

كان شتات الأشباح يلتئم مرّة ويفترق أخرى، ولحقت كوكبة من الخيّالة بالفرس فى صخب وجنون، وتعثّر الفرس.

- خلد، خلدون...

أين هو؟

انهارت فرسُ السّلطان.

واقتلع فارس مجهول الطفل الملكى من على سرجه وانصرف به.

---

١٢ - عيّن الوزير أبو محمّد بن تافراكين ابن خلدون ليكتب العلامة عن سلطانه أبى إسحاق وخرج ابن خلدون مع الجيش. يقول ابن خلدون: "وكنت منطويًا على مفارقتهم، لما أصابنى من الاستيحاش لذهاب أشياخى، وعطلتى عن طلب العلم. فلمّا رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيّارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللّحاق بهم، وصدّنى عن ذلك أخى وكبيرى محمّد، رحمه اللّه؛ فلمّا دُعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرضى من اللّحاق بالمغرب، وكان كذلك..." (التّعريف، ص ٥٦).

كاتب العلامة[١٣]

غطّى ندى الفجر كلَّ شىء، وكان الدّرب رَخْوًا غير واضح المعالم تطأه حوافرُ فرسٍ أصيلة مُرهقة، يسُوسُها فارسٌ لا يَعْرف هَوَادَةً.

بدأت تباشير الصّباح البيضاء تلوح شيئًا فشيئًا، أبعد الفارس الرّكاب الحادّ عن جنبى الدّابّة، بدأت عزيمته تفتر وتلين وقد بلغ به الإعياء مبلغه، واكتنفته رطوبة النّهار الذى كان يطلع ببطء.

- مهلاً أيّها الجواد، على مهلك، نحن الآن حرّان طليقان، أمّا غايتنا فما زالت بعيدة.

---

١٣ - يقول ابن خلدون: «كتبت العلامة للسلطان، وهى وضع «الحمد لله، والشكر لله» بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة

كان هذا كلام صفىّ السّلطان الصّغير أبى إسحاق، وقد تخلّى عنه وانصرف إلى سواه، كانت مطيّته تمشى بهَمْلَجة تَتَدَرّجُ نَحْوَ النقصان والضّعف، وهى تسلك بطريقة غريزيّة دربًا غير بيّن المعالم. كان خلدون تهدهده مشية المطيّة، وحيدًا فى هذا الفضاء وهذا الصّباح حيث لا شىء يشعّ، وقد نال التّعب من بدنه، شبّك يديه وشدّ بهما على قربوس السّرج، وقد أخذه النّعاس، كان ذهنه يقظًا فى جسد متراخ، يفكّر ويتذكّر مستغرقًا فى تأمّلاته دون أن يُضيع شيئًا من مداركه.

توارى خلدون فى ليلة النّحس تلك، واتّجه على متن جواده نحو الجنوب أولاً. ولمّا تلاشى وقْع حوافر الخيل على الأرض وخمدت الضوضاء التى كانت تملأ الجوّ، رأى أنّه من الأحوط أن يحتال ويشوّش آثاره، فيُخادع مثل ضَبْية يُطاردُها الصيّاد، قبل أن يغيّر وجهته وينطلق نحو الغرب(١٤).

طلع النّهار على تونس، نهار كلّه ويلات ومصائب وعويل ونحيب. فعرفت تونس بذلك مصيرًا متقلّبًا ليس له قرار، تخلّى خلدون عن المشعل الذى انطفأ فى قبضة الوزير المستبدّ على العرش. وانساق إلى إحساس مُسْبق واضح وكأنّه قدرةٌ على التكهّن والتنبّؤ بمجارى الأحداث القادمة، دفعته نحو الشمس التى كانت تسطع على فَاس.

---

١٤ - يقول ابن خلدون: " ونجوتُ أنا إلى أبّة، وأقمتُ بها عند الشّيخ عبد الرّحمن الوَشتاتى، من كبار المرابطين، ثمّ تحولتُ إلى تَبَسّة... وسافرتُ إلى قفصة" (التّعريف، ص ٥٦).

داخله هذا الإحساس المسبق منذ خروجه من تونس[١٥] مع هذا الجُند الذى عُدمت منه الحميّة والحماس؛ فما أن اصطدم الجيشان حتّى ازداد هذا الإحساس وضوحًا، وكان من الجائز أن ينضمَّ خلدون إلى صفّ العدوّ لو سنحت له الفرصة وساعدته الظروف؛ لكنّ الدّولة المرينيّة العظمى تركت، بكلّ ما أوتيت من روعة، آثارًا فى أجمل سنى يفاعته لا تُمحى وذكريات لا تُنّسى، وفرضت عليه اختياره والتوجّه إلى فاس، وكان أب السّلطان الذى حكم فاس آنذاك قد حكم تونس حكمًا رائعًا وزاهرًا.

يا له من ملك عظيم! كان حلمه الوحيد بعث إمبراطوريّة الموحّدين من جديد: صولجان واحد يخضع له المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، إلاّ أنّ شغب العشائر والقبائل التى كانت تزدرى بالنّظام والولاء واضطرابها لم يساعدا على بلوغ هذا المرام الطّموح، فكانت الهزيمة من نصيب أبى الحسن وهو يظنّ أنّ له الاقتدار على العقاب والقصاص، ووجد نفسه فى المدينة البيضاء وقد أحدق بها الطّاعون الجارف والمجاعة المُهلكة، فرحل عن طريق البحر تتقاذفه أمواجه المتلاطمة وتتلاعب به صروف الأقدار المتقلّبة.

---

١٥ - يقول ابن خلدون: " وكنت منطويًا على مفارقتهم، لما أصابنى من الاستيحاش لذهاب أشياخى، وعُطلتى عن طلب العلم... فلمّا دُعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرضى من اللّحاق

كلّ ما كان خلدون ينعم به فى منزل أبيه من الرخام والعبيد والبذخ والتّرف واليسار يملأ الآن ذاكرته ويداعب نعاسه، لكنّ كارثة الطّاعون نغّصت عليه ذاك النّعيم وأدخلت المنيّةَ إلى البيت؛ فهلك الأب والأمّ والأخ الأكبر.

أمّا قبل ذلك فلم يعهدْ إلاّ بيتًا كان ينعم فيه باليسار والخيرات ولذّة التعلّم على مشايخ من تونس وعلماء مغاربة من مجلس السّلطان الكبير أبى الحسن قدموا فى جملته عندما ملك إفريقية، فلم تتجاوز سنّه السّابعة عشر حتّى كان على معرفة تامّة بقراءات القرآن السّبعة المشهورة والأحاديث والتّفاسير. وشرع فى تعلّم أحكام الفقه وأقيسته والتعمّق فى سيرة الرّسول والأدب واللّغة.

كانت حقول قرطاج التى اجتاحها الخراب والدّمار مجالاً رحبًا تجول فيه أحلامه التى كانت تستغرق الأوقات الطّويلة. أحلام كلّها وجد وشغف، لم يكن ما عرفه الماضى من بذخ وما كان له من التّبعات لتشدّه وتُوقفه؛ إذ كان يخالف كلّيًا ميله إلى العودة إلى الأسلاف وتصوّراته للأجناس البشريّة فيما يتعلّق بمظاهر العالم وأشكال الحُكم، لكنّه كان يحتفظ من حوادث الزمن الغابر بالأمور المتماثلة والأحوال والمظاهر التى تشابه أحوال القبائل بشمال إفريقيا فى أصولها وفى انتشارها وتطوّرها وسلوكها، وكان يولى هذه الأحداث عنايته كلّها ويوسّع من مداها، وقد لمس من نفسه منذ الصّغر نظرًا ثاقبًا وفكرًا ممحّصًا نادر وجوده، وقد رسخ فيه

رسوخًا بلغ به حدّ الابتهاج أو العذاب. كان كثير التأمّل والنّقاش، وكان يقيّد ملاحظاته، ولا يهمل وثيقة واحدة ولا فكرة راجحة، وبدأ يفكّر بطريقة غامضة فى إنجاز عمل لا تُفنيه الأيام فى تتاليها ولا الأزمنة فى تعاقبها.

رأى شيخه(١٦) فيه تلميذًا ممتازًا، ولعلّه كان معدًا بالفطرة للدّراسة وطلب العلم، ولعلّ كلّ ذلك كان أمرًا مقدّرًا.

لم يكن ميّالاً إلى شهوات الجسد ولم يكن يستسلم كلّيًا ولمدّة طويلة إلاّ للنّشوات العقليّة واللذّات الذهنيّة، وكانت الأفكار توشّى الأغراض والمسائل التى لم يُسبق إليها فاستأثر بالفحص عنها. وكانت تتزاحم فى دماغه وتطنّ كالنّحل يجنى رحيق الأزهار، وكان طموحه يتجاوز حدود الوقت الذى هو فيه قبل أن ينصرم، مهما كان سعيدًا.

وكان سرعان ما يجلب بأفعاله المدح والثّناء.

وكان يجذب الأنظار ويؤثره النّاس على غيره لما أوتى من لغة بديعة وأحاديث ثريّة ومتنوّعة يندهشون لها، وذهن غذّته العلوم وصقله الأدب والدّهاء، ومشية نبيلة، وهيأة متّسقة كانت تُظهره أطول قامة من غيره من الشبّان، وأنفة طبيعيّة لديه تغوى من حوله وتُغريه...

---

١٦ – تعنى الكاتبة أبا عبد الله محمّد بن إبراهيم الآبلى (التّعريف، ص

لكن المشايخ المغاربة اختفوا مع السّلطان المرينىّ، والعلماء التّونسيّون فقدوا حِنْكتهم وصفاء الذّهن فى خضمّ السّياسة وويْلاتها وقتئذ، فكان خلدون يفضّل البقاء فى العزلة على الانضمام إلى جماعة متقلّبة المصير، طالت الفاجعة جميع أهله وخيّم الحزن والحداد على بيته، فنذر نفسه للعلم كملاذ وحيد وآمن. وكانت حالة الانفراد تُكسبه مزيدًا من القدرة على التبصّر بالأحداث الجارية وعلى مراقبة قوّة الرّياح المتضاربة واتّجاهها، وعلى تصريف النّتائج التى تُثْمرُها العُزْلةُ أو الحميّة والالتزام المتحمّس إزاء المجموعة.

هزّ الانقلاب بعنفه وضراوته مدينة تونس من حالة الفتور التى اعترتها بسبب الوباء، ورأى خلدون الأموات الذين ماتوا أشنع ميتة وشاهد بينهم طفلاً أصابه الرّعب وقد أُنتزع من مخادع الحريم ورُفع على مجنّة كبيرة، وكان يطلّ من خلفه وَجْهُ تَافْرَاكِين، المستبدّ على العرش...

وكان هذا يكره الشيوخ المتخلّفين والأنظار الرّصينة والحذرة التى كانت تفحص ماضيه وتحاسبه: كان يضرب بالعصا ويقصم صلب كلّ عنيد ويُرغم على الصّمت الأفواه الصّارمة، وتصدّى له وجه أمرد نقىّ فيه نظرة لا تخلو من حذر خفىّ ومن ابتسامة ذكيّة تعلو شفتين متكبّرتين تتخلّلهما محاباة مقصودة، ولمّا سأله أجابه بعبارة ليّنة، دقيقة فى لينها، معهودة فى بلاغة الخطباء المتمرّسين

بالمناظرات والمباريات الفكريّة اللّطيفة، وأظهر خلدون فى لحظات معدودة ما وهب من قدرة على الاحتجاج، ومن منطق خادع مموّه، ومن خيال مُبدع باهر، لقد برهن التّلميذ المدلّل من الشيوخ جميعهم على أنّه أهلٌ لشهرته النّاشئة.

قال له الوصىّ على العرش:

- أعيّنك كاتب العلامة، قد كان والدك خادمًا وفيًا للدّولة الحفصيّة. فكنْ أنت أيضًا من خاصّتنا.

ومنذ ذلك الوقت نال الشابّ الجميل كلّ الرّضى الملائم والمناسب، وهو يصدّق على صحّة المخاطبات والمراسيم التى يُلهَمُها الملك الصبىّ بأن يذيّلها بصيغة: "الحمد لله!"

وتعلّق السّلطان الصّغير - الصّغير جدًا - بصفيّه وسميره الشّاب؛ لأنّه الكائن الأقرب إليه سنًا والأحبّ إلى قلبه: خَلْد... خَلْدُون.

فندق البطحاء

كانت المِينَا تحت الأسوار تدفع بمَوْجِها المائل إلى الصّفرة نحو الشّلّف.

كانت القرية الصغيرة غارقة فى سباتها، بدأت أصوات الطبول الخافتة تتلاشى فى الزّقاق الذى كانت ترتاده بنات اللذّة، وهناك بنات أخريات أتت بهنّ عجوزٌ خبيثة لقضاء وطر أولئك الذين وردوا فى مركب الأمير والجيش وحطّوا بالفندق، وتوارت البنات فى الحجرات الصّغيرة أو وراء أكداس الأمتعة.

افترش زنوج نصف عراة الأرض بعد أن أرووا ظمأهم وظهر عليهم الازدراء، والتفّ عدد من الحرّاس بأرديتهم وكأنّما التحفوا بأكفانهم، بعد قليل سيناموِن وسيحلمون ببجاية النائية، بجاية مدينة البحر الّتى عيّن مولاهم واليًا عليها، وهو من علية القوم بفاس.

كانت جمال الحمْل تشكو من حين لآخر بصوت يشبه زئير الأسود أو زمجرة الفهود.

وفجأة حمحمت الخيول المشدودة إلى عقالها والفحول ذات اللّبان العريض والعرقوب اليابس، قد اشتمّت رائحة فرس أصيل كانت تزبد وترغى، وتبيّنت رائحتها من بين روائح اللّيل كلّها.

- فارس!

- ممّن ولِمن؟

- صديق، عريق فى الصّداقة، مبعوث من تونس إلى فاس.

انفتح باب الفندق قليلاً أمام خلدون ومطيّته.

- يا معشر النّاس، يا إخوتى، غداً سألاقى مولاكم، أمّا الآن فدعونى أنام!

التفّ بِبُرْنسه وقد انطبقت جَفْنَاهُ على عيْنَين مستطيلتى الشّكل سوداوى اللّون، وانحسرت شفتاه فكشفتا عن أسنان نديّة كاللّوز. وامتلكه نوم لا حلم فيه ولا ندم.

لا تعدو الحياة أن تكون منضدة لعب، وكلّ امرئ يلعب لعبته بضربات تكون إمّا مباشرة ومستقيمة أو ملتوية ومختلقة، ومن يفوت غيره فطنة يتوارى حينما يقدّر أنّ لعبته خاسرة...

لم تطلع الشمس بعد حتّى بدأ ذباب الصّباح يتهافت على البشر والدّوابّ ويزعجهم، استيقظ خلدون وقد بعث إلى والى بجاية الجديد[١٧] يستحضره.

---

١٧ - وهو عمر بن على بن عبد العزيز شيخ من شيوخ بنى وطّاس، من بنى الوزير، ولاّه السّلطان أبو عنان على بجاية (التّعريف، ص ٥٧).

– من أين قدِمتَ؟

– من قفصة وتبسّة وبسكرة...

أعجب المولى المرينىّ بالابتسامة المبهمة التى كانت تعلو محيّا هذا الذى يسائله.

– ... وقبل ذلك من مرماجنّة

– أعلم ذلك...

– أجل، نَبَأُ الحادثة يشيع بسرعة، أمّا التّفاصيل والنّتائج والأسباب فهى تقطع طريقها ببطء.

– أوَ لَكَ بِهَا عِلْمٌ؟

– علمت منها الكثير وجوادى يطوى بى البلاد.

– وإلى أين أنت ذاهب؟

– إلى فاس لأطلع السّلطان أبا عنان على الحالة التى آلت إليها الإمبراطوريّة الحفصيّة التى كان أبوه ملكًا عليها.

– أو تظنّ أنّه يجهل الأمر؟

– ... وأرغب فى أن ألقى من جديد شيوخًا مغاربة كنت أُكنّ لهم المودّة.

– هذا قرار أُتّخذ عشيّة الهزيمة، وهذه أمنية وليدة البَلْبلة والاضطراب.

تفحّص وجهَ خلدون بنظرة ثاقبة ولعلّها كانت تنمّ عن ريبة. ردّ خلدون قائلاً:

تنبّؤاتى وأمانىّ مستقلّة عن كلّ تأثير، فالإخفاق والانتصار على حدّ سواء يجدان منّى العينين منفتحتين، والذّهن صافيًا بفضل التردّد على الحكماء ومعاشرتهم، والعزيمة ثابتة.

طال النّقاش وتشتّت.

لمس مخاطب خلدون لدى هذا الشّخص الفريد أساليبَ السيّد العظيم الرّشيقة والأناقة الميسورة واللباقة المطعّمة بالسّخرية. كان قد جلب اهتمامه بصفة مفاجئة، ثمّ أعدّ له مشروعًا حذرًا. أدرك الدّبلوماسىّ الفاسىّ قدْر هذا الدّبلوماسىّ الآخر وقيمتَه.

قال له:

أنت من سلالة نبيلة، وكان لرجال أسرتك دومًا المناصب العالية. لا تسرع إلى فاس وكأنّك تريد أن تصيب هدفًا فى حلبة سباق. سيُنصب لك العديد من الأحبولات ومن المكايد، ويجب أن تعرف كيف تتجنّبها وتنجو منها. أملك بعض القدرة والنّفوذ، أودّ أن أستعملهما لصالحك فتنتفع بهما. أجعلك والّيا على قلعة البَطْحَاء هذه وتكون مكلّفًا بإدارة شئون سهل شَلَف كلّه باسم السّلطان المرينىّ، لا تتعجّل وتستبق نداء الملك، وإنّما تَرَقَّبْه.

وليمة السلطان

أنشد الرَّحَوِىّ[١٨] فى قصيدة نَظَمَها فى ذكر ابن خلدون يمدحه فيها:

- "أقبلت عليك الدّنيا
- عروسًا رهن بَنانك
- بِذا حكمت الأقدار فى مجراها الرّائع"

يا لها من مراحل وجيزة، تلك التى قُطعت: الهروب، البطحاء، سهل الشَّلَف، الإقامة عند والى بجاية التى آنس إليها وطاب مقامه بها[١٩]

١٨- أبو القاسم الرَّحَوِىّ: شاعر تونس وصاحب ابن خلدون (التّعريف، ص ٢٢). لم نستطع للأسف الشّديد أن نعثر على هذه القصيدة.

١٩ - يقول ابن خلدون: " وارتحلت أنا من بسكرة، وافدًا على السّلطان أبى عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبى عمرو بالبطحاء وتلقّانى من الكرامة بما لم أحتسبه، وردّنى معه إلى بجاية" (التّعريف، ص ٥٨).

البطحاء... أنجز فيها خلدون عملاً فى غاية من التّمام، عَمَل مُوَظّفًا فى ولاية، وُهب العظمة والبراعة، إلاّ أنّه كان يطمح إلى أن لا يُدرج فى طىّ الإهمال والنّسيان، كانت أجواء القصور وما يكنّه له العظماء من اصطفاء وإيثار أو بغض وعداوة أُمُورًا ضَرُوريّة له لا يعيش بدونها، تمامًا كما أنّ رائحة العسَل ضروريّة للزّنابير وقطرات الماء لِقَوْس قزَح، فَأقْنَع والى بجاية باستدعائه وتقريبه منه، لكن تبقى فَاس وبلاطها ومساجدها، معابد النّفوذ والعلم، نهاية مطافه والغاية التى نصبها لنفسه.

واتّفق أن وُجّهت بعْثةٌ إلى السّلطان، فعمل خلدون على الحصول على رتبة السّفير(٢٠).

لقى من جديد شُيُوخَه القُدامى، وقد احتفظوا منه بذكرى الشابّ اليافع الذى يندر وجوده، ذى الذهن المَرِن والمُتَأجّج والرّوح الجيّاشة والمُعْتكفة، والتّلميذ ذى الفكر النّافذ والذّكاء المتّقد، صاحب الكلمات التى كانت منذئذ تفرض نفسَها على السّامعين بفَصَاحَتِها، تلقّفه الشّيوخ وقدّموه على أنّه خير مثال تتأسّى به أفواج الطّلبة ذوى الوجوه المصفرّة والشّاحبة وقد فَقَدت نضَارة

---

٢٠ - يقول ابن خلدون: " وعاد السّلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتّحليق بمجلسه، وجرى ذكرى عنده، وهو ينتقى طلبة العلم للمذاكرة فى ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عنّى، ووصفونى له، فكتب إلى الحاجب يستقدمنى، فقدمت عليه سنة خمس وستّين" (التّعريف، ص ٥٨).

ألوانها فى نور الحُجيْرات الضئيل وقد خيّمت داخلها غشاوة من التأمّل ودخان الصّمغ[٢١] كانت الجوارى تُخبِرْن الإماء وبنات الأشراف بما كان يجرى خارج القصور، فكنّ تتخيّلن الجَمال الذى كان عليه هذا الغريب الشابّ، صاحب البرنس الرّقيق وفوق رأسه عمامة اتّخذت من النّسيج الموصلى الشفّاف ذى البياض النّاصع والمطرّز بالحرير المذهّب. كان الفِتْيَان والغِلْمَان، الذين كانوا يعمّرون قصر أبى عنان، يحسدونه على ما كان عليه من قلّة الاكتراث والحيويّة والنّشاط والأنفة المغرية أو اللّطف والطيبة السّاخرة.

أقيمت مأدبة السّلطان تلك اللّيلة احتفاءً بخلدون.

«أقبلت عليك الدّنيا...

عروسًا...»

كان السّلطان يُكنّ لأهل العلم والأدب كلّ الإجلال والتّقدير. واليَوْم أراد أن يتعرّف على هذا المفضّل والمقدّم لدى العلماء، بعد أن استقبله بصفته سَفِيرًا لبجاية.

أدعوه ليحلّ ضيفًا علىّ، ومن الآن أضمّه فى أهل مجلسى العلمى، فيحضر كلّ المجالس التى يجتمع فيها حولى أهل العلم والشّعر والخطباء والفقهاء.

---

٢١ - صمغ جاوة أو لبان جاوة.

كان خلدون مُولعًا بأقداح الشّراب الكبيرة وصِحاف الذّهب والفضّة والمشاعل والخزف والأنوار والألوان، والأطعمة الضخمة واللّحوم التى كُسيت سمنًا وسال منها الدّهن، والأطْوَاس والدّواجن والأرز والأسمدة والغلال والحلوى؛ ذلك كلّه كان يُبهجه ويطيب له. ولكنّه كان يتنعّم به أقلّ ممّا كان يتنعّم بفكره فى ما تخبّئه له الأيّام المُقبلة.

قال أبو عنان السّلطان:

إنّك يا ابن آل خلدون مثل الشّعاع الجديد الذى ينبثق فى الصّباح ويأتينا من الشّرق، فنتلقّاهُ ونَبْتهج له، وهو يبشّر بأيّام ستصفو لنا ولن تكدّرها شائبة، فمرحبًا بك! إنّى نزّلتك من بين من اصطفيتُهم وآثرتُهم، وما أبتغيه منك هو أكثر من ذلك... ستشهد معى الصّلوات كلّها.[٢٢]

سَرَت فى الضّيوف موجةٌ من الثّناء والإهْلال. فأجاب خلدون:

- مولاى، وهل من شعاعٍ يحمل معه البهجة والحبور ويستحقّ التّرحيب إلاّ ذاك الّذى تُلقى به تلك الشّمس المنعشة والسّخيّة التى

---

٢٢ - - يقول ابن خلدون: " نظمنى فى أهل مجلسه العلمى، وألزمنى شهود الصّلوات معه، ثم استعملنى فى كتابته، والتّوقيع بين يديّه، على كُرْه منّى؛ إذ لم أعهد مثلَه لسَلَفى، وعكفْتُ على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين فى غرض السّفارة، وحصلتُ من الإفادة منهم على البُغْية " (التّعريف، ص ٥٨ - ٥٩).

بزغت على الدّنيا... وذلك الشّعاع لا يصدر إلاّ عنك، ليكون فى خدمتك ورهن إشارتك.

- فى خدمتى...

- نعم، للتوّ وإلى الأبد!

- منذ فجر الغد.

انحنى خلدون، من طبيعة الحظوة والفضل أنّهما لا يوهَبَان ولا يُمْنَحَان، إنّما يُبَاعان، وكان فى عقله وجسمه على درجة من الشّرف يعرف معها كيف يشتريهما.

فما كان الفجر حتّى تلقّى من السّلطان هذا الخطاب المكتوب:

"انصرف، ولا تُطلع أحدًا على الوجْهة الّتى تقصدها ولا على ما أفكّر فيه، واذهب إلى معسكرات الزّاب وواحاته، ولتَبْلغ بسكرة عن طريق الصّحراء، ثمّ بجاية عن طريق البحر، اكشف السّتار عن الوجوه المحتجبة، واطّلع على ما تخبّئه، وعُدْ إلىّ لتُخبرنى ما إذا كانت لدى فيالق عسكر السّهوب والجبال رغبة فى أنْ تمشى معى،... نحو الشّرق.»

أضاف خلدون على سبيل التّدقيق:

- نحو تونس.

ما كاد يجلس إلى المأدبة الّتى يحبّذها ويرتضيها لنفسه حتّى وضعه مصيرُه على السّرج ثانية، هو الهارب والمتخلّى عن حزب

الحفصيّين، هذا الحزب الذى كثيرًا ما خدمه آباؤه، ها هو الآن يهيّئ السُّبل التى سيتهاطل عليها الجديد من البلايا والكوارث ومن المجد والسّؤدد.

همس دون اقتناع منه:

ما نحن إلاّ قوى عمياء وأسباب وذرائع لا تفعل إلاّ بمشيئة اللّه وحدها.

عاد إذن ليَسلك ثانية تلك الطّرق نفسها التى جَابَهَا فى اتّجاه عكسى، سيَجُولُ بين فاس التى تفُوق غيرها علْمًا، وبين تونس التى تفوق غيرها أوجاعًا وآلامًا، وفيها يوجد الملك الصّغير الذى كان يكنّ له الودّ والمحبّة، وهو يتظاهر بالحُكم والوزير المستبدّ على العرش يتوعّده بسِيَاطِه الدّامية، من يدرى؟ لعلّ خلدون يترك لجواده اختيار وجهة المرحلة الأخيرة.

السّجين

دسّ حارس السّجن خلْسةً فى يَدِ خلدون شَذَرَةً من الرِّقّ وعليها كتابة خُطّت بعجل، أغلق باب الزنزانة من جديد، باب ثقيل يُوصد كالقَدَر المَحْتوم لا مُعَقِّب لحُكْمِه ولا رجْعَةَ فيه.

الزّنزانة والسّجن المظلم والسّرداب والدّهليز والجبّ المهمَل! كلّها أماكن فى منتهى الرّعب والوَحْشة، ولكن يوجد فى سُجُون فاس ما هو أدهى منها وأشدّ فظاعة، وهذا المكان الذى عُزل فيه خلدون وأُقصِى، كان فى حجم سجادة صلاة، وكانت فيه فتحة ضئيلة هى أقرب إلى الشقّ منها إلى الكوّة التى تُرمى منها القذائف، وفى أشدّ الأوقات ضياء كان البصيص من ضوء النّهار الذى يدخل منها يكاد يمكّن من تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، هكذا كان خلدون يَقْدر مع ذلك على قراءة خطاب صديق يربطه بالعالم الخارجى.

زُجّ به فى غَيَاهب السّجن وأورى هناك منذ شهور، وكان يجترّ فيها ذكريات الأحداث كما تجترّ الماعز التى حرمت المراعى الخصبة أوراق المصْطَكا المرّة.

كان قد أنجز المهمّة التى كلّفه بها السّلطان بحزم وسرعة فى جولة طويلة على متن جواده، واستعمل فيها فصاحة مرحة ومقنعة، وإذا اقتضت الظروف صبراً ودهاءً لا يتسنّيان إلا لأمهر الصيّادين، وكان فى ذلك لا يُهمل أحدًا: من زعيم عصابة أو زُمرة من البدو الرحّل أو تجمّع ومعسكر يُحيطان بالحُصون، وقد شُوهِد فى كلّ الدّروب وتخوم الصّحارى وثُغُورها وفى ما وراءها.

جَابَهَ عشائر البربر بالجبال حيث ما زال شبح الكاهنة جاثِمًا، فى فَىْء أشجار الأرْز وأريجِها الذى لا يَفْنى، وبُعثت من جديد روابط الإخلاص والوفاء القديمة ونَفَضَ عنها الغُبارَ، وأُبْرِمَت مواثيق الصّداقة وتعدّدت تحت وقع حوافر جواده...

أين منه ليالى بسكرة! بسكرة التى كان ضوء القمر يغشوها والصّوت الفضّى النّاعم الصّافى الصّادر عن حلقات النايليات[٢٣] وخرير المياه الجارية يُصاحبه... وبجاية الإقطاعية، مدينة المِيَاه والأمْوَاج، وبحرُها الشّادى وأسوارها السّميكة والمنيعة... وقسنطينة وصُخُورها الهائلة وهاويتها وبيوتها الزّرقاء.

البيوت الزرقاء... وأوكار اللّقالق فوق السّقوف والمآذن، وأسْراب اليمام والغربان التى كانت تحلّق فى الأجواء المحيطة...

---

٢٣ – النّايليّات: النّساء الشهيرات، نسبة إلى أولاد نائل بالجزائر.

كان هذا إطارًا تراءت له فيه على حين غرّة يدٌ صغيرة مخضّبة أطلّت من بين قضبان المَشْرَبِيّة وأطْلَقت فى الفضاء زَوْجًا من فرخ الحمام، وكان خلدون يطوف فى أرجاء المدينة وأدرك منعطفَ زقاقٍ لمّا لاح له هذا الطّيف، فشغف به وهام بشدّة وهو لا يعرف هويتَه. واكتشف فى الحال أنّ المَنْزل ذا المشربيّة هو للسيّد ابن الحاكم، وهو قائد حفصىّ، وكان يُقيم فيه مع ابنيه وابنته قَمِيَرة.

قَمِيَرة، تُوَيْجية وَرْد أو حَبَّة مِسْك!...

تزوّج خلدون البنْت العذراء صاحبة اليديْن الصّغيرتين المخضّبتين، وجاء بها إلى فاس...

والآن، تُرى إلى ماذا آلت أحوال قَميرة العزيزة، وسط شكوى عبيده ونحيبهم، هل تُوشك أن تلد طفلاً؟...

كيف أمْكن لهذا القدْر الهائل من الحظّ النّكد أن يعقب ما يعادله من الفضل والحظوة؟ يجترّ خلدون مرارتَه وغمّه، وتهوّره وخطأه.

اختُصّ بالفضل والحظوة وحصّل منهما ما لم يحصّله فى أىّ وقت آخر، وما إن رجع حتّى رأى كلّ رغباته قد لُبّيت، وأغدقت عليه العطايا ومُنح كلّ المزايا، أقبل عليه الحظّ بصفة مذهلة، فبدأ يخلد إلى الدّعة ويسْترخى ويَلِينُ، وبدأت نفسه تميل إلى السّكينة، وبدأ فكره اللّطيف يتعطّل بعض الشىء، وقد حقّق أو كاد كلّ ما كان يطمح إليه ويصبو، وكان هناك شابٌ فخور يجُوب آنذاك البلاط ويتنعّم بما فيه من بذخ، وهو أمير حفصىّ قد جرّده جند السّلطان وأُخِذَت عليه العُهُود أن لا يغادر فاس، فبقى سجينها، وكان له من

الخصال والخلال ما جعله يروق فى عينى خلدون نديم السّلطان وصفيّه، فأضحى خلدون صديق الأمير أبى عبد اللّه الحميم، وبدأ يتورّط معه حتّى أنّه تطلّع معه إلى استرداد عرْش...[٢٤]

إلاّ أنّ أبا عنان، المرينىّ، كان قد استعْمله فى الكتابة عنْه والتّوقيع بين يديْه وعيّنه "كاتب الأوامر" وكلّفه بتذييل العرائض كلّها، وكان له تأثير مباشر على إرادة السلطان، لكنّه لم يأخذ حذره من الحسد الذى كان يتفاقم حواليه بسبب أفعاله، وكان سلوكه يثيره ويقوّيه، كان يُعامل حسّاده بترفّع واحتقار على درجة من الصبيانيّة لا تُقبل، ولم يكن يبالى بالتّلميحات الشرّيرة والإشارات المُغْرضة التى جعلت السّلطان يرتاب منه شيئًا فشيئًا. واستمرّ ذلك إلى أن التقى الصّديقان ذات يوم فى السّجن وقد اشتبها بالتّواطؤ والخيانة[٢٥].

وسُرعان ما أطلق سراح الأمير أبى عبد اللّه. كان أقلّ أعداء من خلدون الذى أراد أبو عنان لعقابه أن يطُول، ولعلّه غَاظَهُ أنّ الرّيبة خامَرَته فى أمْر خلدون...

كان الأسيرُ يَقْرَأُ السّطور التى كانت تصله عادة والتى كان عبد اللّه يُطلعه بها على ما يجرى بالخارج:

---

٢٤ – هو أبو عبد اللّه محمّد بن الأمير أبى زكرياء. ويقول ابن خلدون عنه: " كانت قد حصلت بينى وبين الأمير محمّد صاحب بجاية من الموحّدين مداخلة أحكمَها ما كان لسلَفى فى دوْلتهم" (التّعريف، ص ٦٦ – ٦٧).

٢٥ – يقول ابن خلدون: " وغَفَلْتُ عن التحفّظ فى مثْل ذلك من غيرة السّلطان، فما هو إلاّ أن شُغل بوَجَعه، حتّى أنمى إليه بعض الغواة أنّ صاحب بجاية مُعْتَمِل فى الفرار ليسترجع بلده... فانبعث السّلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه. وكان فيما أنمى إليه أنّى داخلته فى ذلك فقبض علىّ وامتحننى وحبسنى وذلك فى سنة ثمان وخمسين " (التّعريف، ص ٦٧).

"... تُجنَّد أفواج الجيوش، انطلق الوزير على رأس فيلق أوّل من العساكر، وسيلحق به السّلطان..."

قال السّجين المعاقب لنفسه:

إنّه سيَجْنِى ثِمَار مَسْعاى.

"... لعلّ هناك تفكيرًا فى الاستيلاء على قسنطينة التى أظهرت التمرّد وشقّت عصا الطّاعة؛ غدر البدو ونكثوا العَهْدَ؛ واستولى الأنصار من الشرق على تونس...

"... أمّا عن منزلك وأهلك، فكلّ شىء بخير، إلاّ الألم لغيابك. سيولد الطّفل فى صحّة وبَرَكَة، وشُغْلنا الشّاغل هو أن لا نُهمل شيئًا من شأنه أن يبدّل وضعيّتك القاسية ويُنزل بك رحمة طال ارتقابها من ملك عنيد..."

تمرّ أسابيع، يعدّ خلدون الأيّام مرّة تلو الأخرى.

"... هنيئًا لك! وُلد ابنك، كلّ الأمور مستقرّة فى الخير برضى اللّه المجزئ...

"... يتحدّث النّاس عن رجوع للسّلطان غير مرتقب: ملل الجيش وكلله، محاولة التّآمر من الوزير وقوّاد الجيش... "

ابنه... التّهانى! إنّها لزوجة جديرة حقًا بالزّوج.

مؤامرة من الوزير، عدوّه الألدّ والأشرس؟...

آه! لَيْتنى أعود إلى حرّيتى ونُفُوذى، وأرى الطّفل تُهدْهده اليدان الصغيرتان المخضّبتان، يدا الأمومة!

"... قُتل الوزير وآخرون بالرّماح بأمر من السّلطان..."

الحمد للّه! لكنّ أسرى مُستَمرّ، مُنذ سَنَتَيْن.

يُجيل خلدون هذا كلّه فى خاطره وقد غلب عليه اليَأسُ.

ماذا جاء يفعل فى هذا المغرب المرينىّ الذى كان يطمح إلى أن يبتلع كلّ الممالك الأخرى ويهيمن عليها؟ أىّ حساب خاطئ حسبه، حساب وضعه تحت رحمة هذا الملك الفاسىّ الذى كان على غاية من الاقتدار والبأس بتأييد من ابن عمّه من الأندلس، حتّى أنّ أصحاب الحلّ والعَقْد والصّداقات الموالية لخلدون فى السّلطنات الأخرى لم يكن لهم عليه تأثير ولم تُجد نفْعًا فى أن يُخلى سبيله، ما قيمة أمانى هذا الصفىّ الشابّ، الأمانى المتّقدة حماسًا والتى ذهبت سُدًى، وقد أُقِيلَ من مَنْصبه وزالت حظْوتُه، فى الوقت الذى كان يرى لنفسه منزلة إدريس وعظمته واقتداره، وهو أب سلالة حاكمة ومؤسّس أوّل مملكة بفاس، أو منزلة رستم الذى ألّف بين قبائل زناتة ووحّد بينها كلّها! ها هو خلد، وقد تبدّلت حاله وفسُدت وعُدم التّسلّط والهَيْمَنَة والجلال والشأن، وهو يعيش الآن فى تبعيّة لحامل مفاتيح السّجن، هذا الرّجل الفظّ الغليظ، وهو يدين له بأنّه يروى عطشه البدنى قليلاً ولا يشبعه من جوع أبدًا! أو لا يكون مآلُهُ الحُكمَ عليه بالقتل، فيكون مصيرُه مصيرَ جدّه الذى كان فى القديم وزيرًا على الأموال بتونس؟...[٢٦]

٢٦ – أى جدّه أبو بكر محمّد الذى تولّى الجباية واعتُقل وصودرت أمواله ثمّ قُتل خنْقًا فى محبسه (التّعريف، ص ١٢).

تأخّر السجّان اليوم كثيرًا عن المجىء.

كان السّجين يَعُدّ:

اليوم هو الرّابع والعشرون من شهر ذى الحجّة... فى العاشر منه لا بدّ أن يكون السّلطان قد شهد على ملأ صلاة عيد الأضحى. ألم يحدث شىء؟ أفلن يحدث إذن شىء؟

وما راعه إلاّ أن بان السجّان، وقد تغيّر وجهه، وخفّ بدنه؛ وبدا كالميّت بُعث من جديد إلى الحياة، أو كالأبكم استردّ النّطق، قال بنفس ضيّق ولسان مستعجل:

- مات مولانا أبو عنان!

- مات...

- ما أن قضَى الصّلاة من يوم العيد الأكبر حتّى طرَقَه المَرَضُ وعلم أنّه لن يُشفى، ودون أن يستشير الوزير عيّن ابنه الأكبر خليفةً له، وجعله تحت وصاية وزير ثان نظرًا لحداثة سنّه، ولم يقْوَ الوزير الأوّل على أن يترك مثل هذه الذّريعة المناسبة للتآمر والمكيدة تُفلت منه! فاقتحم هو وأنصاره القصر منذ الفجر، وبدأ المتآمرون بتسديد طعنة خنجر إلى الوزير الوصىّ سَيىء الحظّ، ونصّبوا على العرش سعيدًا، الصغير، وهو آخر من وُلد، ولم تتجاوز سنّه خمس سنين، أمّا الثانى فقد اختبأ عند النّسوان، ثمّ عُثر عليه، وجرّ عند قدمى أخيه: - "هيّا أدّ القسم بالبيعة والعهد بالإخلاص!" - مدّ كلا الأخوين يديه نحو الآخر فى نحيب ووله، ذبح المتآمرون الأخ الأكبر على مرأى من أخيه الأصغر، وفى الأثناء كان السّلطان يحتضر دون

أن يلفظ أنفاسه الأخيرة(٢٧). كان ذلك جزاء خطيئته البنويّة وصنيعه بأبيه.

كانت هذه الكيفيّة التى حكم بها السّجّان على ما جرى، وقد أعجب خلدون بمَنْطَقه، ولم تكن مأساة القصر هذه إلاّ لازمةً لصفحة من التّاريخ قديمة ونتيجةً لها.

بينما كان السّلطان أبو الحسن، الذى أعاد خلق الإمبراطورية من جديد، يحكم تونس، نصّب ابنَه أبا عنان خليفة له وحاكمًا بتلمسان والمغرب الأوسط، وما أنْ هُزم الأب للمرّة الأولى، حتّى سارع بعض(٢٨) الحاشية المقرّبين من الأمير ليُوَسْوس له، وأغْرَاه بالتوثّب على المُلْك وَسَوَّل له الاستئثار به دُون إخوانه تيقّنًا بمَهْلَك السّلطان. ثمّ أوهمَهُ الصّدق بإرجاف. النّاس بموت السّلطان. فبادر أبو عنان واستولى على المَدَد من العساكر والأموال الموجّه إلى جيش والده،

---

٢٧ - يقول ابن خلدون: " فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السّعيد طفلاً خماسيًا. وباكروا دار السّلطان، وتقبّضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلاهما، وأجلسوا السّعيد للبيعة. وأوعز وزيره مسعود ابن رحّو بن ماساى بالتقبّض على أبى زيّان من نواحى القصر، فدخل إليه وتلطّف فى إخراجه من بين الحرم، وقاده إلى أخيه فبايعه وتلّه إلى بعض حجر القصر فأتلف فيها مهجته. واستقلّ الحسن بن عمر بالأمر... والسّلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه. وارتقب النّاس دفنه يوم الخميس والجمعة بعده؛ فلم يدفن فارتابوا، وفشا الكلام، وارتاب الجماعة، فأدخل الوزير، زعموا، إليه بمكانه من بيته من غطّه حتّى أتلفه " (تاريخ، مجلّد ٧، ص ٦٢٢).

٢٨ - عثمان بن يحيى بن جرار.

وجاهر بالدّعاء لنفْسه وجلس للبيْعة بمجلس السّلطان من قصره[٢٩].

إلاّ أنّ هذا الأب لمّا بلغ الجزائر، جمع الأنصار المُغْتاضين، واستدعى ابنه الذى كان عليه أن يتخلّى عن الحُقُوق الّتى اغْتَصَبها. لكن هيهات! قد فات الأوان، كان أبو عنان قد ذاق طعم السّلطة، ولن يقدر أحد على أن يَفْطِمَه عنه أبدًا، وكذلك أغوى كلّ ولايات المغرب، فدانت بالولاء لسلطة الإمبراطور المرينىّ الشّابّ، وتسابقت إليْه وُفودُ الأمْصار للتّهنئة والبيْعة.

أمّا السّلطان الشيخ، فبعد أن عُزل وانتزع منه كلّ شىء، سعى إلى أن يُعاقب هذا الثائرَ الذى ارتكب مرّتين عملاً مُشينًا، وخسر المعركة الأخيرة والحاسمة[٣٠]، ولم يحصل إلاّ على النجاة بحياته، فى ملاذ بالجبل[٣١] غير ثابت ولا آمن...

قدم الرّسل الذين أوفدهم الابن الغادر والآثم، وبما أكسبتهم غلَبتُهم من جسارة وقوّة، طلبوا من العجوز الصّفح والتنازل عن العرش، وكان مصابًا فى نفسه حتّى الموت، فنزل عند رغبتهم

---

٢٩ - ابن خلدون، تاريخ، المجلد ٧، ص ٥٧٩.

٣٠ - قتل مصاف السلطان وانهزم عسكره بتامدغرست سنة إحدى وخمسين (تاريخ، مجلّد ٧، ص ٥٩٦).

٣١ - جبل هنتاتة (تاريخ، مجلد ٧، ص ٥٩٦)

مفضّلاً أن لا يطيل صراعًا منتهكًا كلّ الحُرمات مدنّسًا كلّه رجس.

مكث أبو عنان بالسّهل فى فخامة وأبّهة، وكان ينتظر جلالة الأب المخلوع، وهو مستعدّ لأن يُظهر له من التشريف والتّكريم ما يُعَادِلُ تَوْبَتَه الباطلة، ولم ينزل السّلطان العجوز من الجبل على صهوة جواده، وإنّما نزل وهو ميّت، ممدّدًا فوق الحراب، قد وضعت يد اللّه حدًا لهذا القدر الهائل من البؤس والنّحس...

لكنّ السجّان أضاف قائلاً:

بالأمس كان النّاس يعدّون سُدًى مأتم السّلطان الذى بقى على قيد الحياة، وفى هذا الصّباح علموا أنّ الوزير عيلَ صبرُه، فدخل على السّلطان المُحْتَضر وضَغَطَ بِكِلْتا يَديْه على رقبَتَه حتّى لَفَظَ النّفسَ الأخيرَ(٣٢).

حَدّق خلدون فى قفْل الزّنْزانة الّذى كان يُشْبِه قفلَ التّابوت.

– يا ترى، هل أنّ اليَدَيْن نفسَهما ستَفْتَحَان هذا البابَ علىّ؟

---

٣٢ – تختلف هذه الرّواية عمّا أوْرَدَهُ ابن خلدون؛ إذ يقول: إنّ السّلطان أبا الحسن رضى عن ابنه الأمير أبى عنان وكتب له بولاية عهده... «واعتلّ السّلطان خلال ذلك، فمرّضه أولياؤه وخاصّتُه. وافتصد لإخراج الدّم، ثمّ باشر الماء بعضوه للطّهارة، فورم وهلك لليال قريبة... وبعث أولياؤه بالخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مرّاكش، ورفعوه على أعواده إليه، فتلقّاه حافيًا حاسرًا، وقبّل أعواده وبكى واسترجع... " (تاريخ، مجلّد ٧، ص ٥٩٧).

الحفل الأندلسىّ

حيّا لسَانِ الدّين بن الخطيب الشاعر الشهير والوزير المقتدر لدى خليفة غرناطة الأشرافَ والحاشِيَةَ والعُلَماءَ الأندلسيّين الذين اجتمعوا فى قاعة فسيحة الأرجاء.

واتّجهتِ كلّ الأنظار نحوه تسائله، يحدُوها فى ذلك حبُّ الاطّلاع.

أعلن الوزير عن مجىء خلدون قائلاً:

سَتَرَوْن هذا الرّجل المدهش، ولم أهتد بعد إلى الأمر العارض أو النّزوة الطّارئة اللذين كانا سببًا فى أن نحظى بقدومه علينا، كان متسلّطًا ومُهَيْمِنًا فى الدّولة الفاسيّة حديثة العهدف حاز فيها على نفوذ لم يعهد مثيله فى حياته قط، وقد وصلنى خطاب من جبل

طارق[٣٣] علمتُ منه أنّه ركب البحر بِسَبْتَة على عجل يروم القدوم على مولانا السّلطان أبى عبد اللّه بن الأحمر وعلىّ أنا.

قال العلماء، وقد سبق للكثير منهم أن عرفوه وكانوا يعجبون بهذا الرّجل المنتظر ويكبرونه:

ليحلّ بَيْنَنَا على الرّحب والسّعة!

كان النّدماء يرون فيه رجلاً نبيلاً لطيفًا، وكان عدد من قوّاد الجيش المُسنّين يتذكّرون زمانًا اتّسم بالشدّة والبؤس: لمّا استولى مُغْتصِبون على عرش غرناطة، ذهب الخليفة ابن الأحمر ووزيرُه الشّاعر يلتمسان العونَ من ابن العمّ الملك الفاسى، وصادف آنذاك أنّ رجُلاً لطيفًا كان صاحب الحظوة يَسَّر عليهم مسعاهم[٣٤].

واصل ابن الخطيب قائلاً:

أجل تربطنا به وَشَائجُ اعتراف بالجميل قديم؛ لذلك فنحن نطمح إلى استقباله معكم كلّكم، هنا فى غرناطة، وفى هذا المنزل الذى أهداه الخليفة إيّاه.

استحسن الحاضرون ذلك، وعلّق الكثيرُ مِنهم عليه ذاكرين هذا الذى سيصبح ربّ البيت، منوّهين بقَدْره وما اشتهر به من حسن

---

٣٣ - أو جبل الفتح.

٣٤ - أى ابن خلدون.

حظّ وسوئه شهرة طبّقت الآفاق، ثمّ إنّ صداقة الأمراء له أو حقدَهم عليه المفرطين وتملّق البقيّة وحسدهم، كلّ ذلك يجعله حَتْمًا مركزَ اهتمام الكلّ، وقد أُثِر عنه الطُّمُوحُ والجسارة واللّطف والجلال، وكان مستخفّا فى ذلك أحيانًا بكلّ شىء وبكلّ النّاس، يقطع سبيله مخترقًا نيران الحظوة أو النّكبة، مثل السّمندل، كَلِفا بمخاطر اللّهب ساخرًا من البركان.

كان يضرب الأرض بعقبيْه وينطلق نحو السّماء الرحبة لِيَفْتح فيها جناحيْن كجناحى العقاب، كان يحصد الكواكب فى عليائها من فوقه وينثرها من تحته. إنّه يرتفع فوق القمم الشمّاء إلى أن يبلغ الشمس ثمّ يهوى إلى الأرض كَحَجَر أسْود، وحينئذٍ يعود من جديد ليندفع نحو العُلا فى انطلاقه الطّموح، دون أن ينال منه النّصب والملل، ودومًا يمضى قُدُمًا، سواء زحف على الأرض أو وثب من فوقها، حرًا طليقًا على الدّوام، لا يتشيّع لأحد ولا يتْبَعُه ولا يخضع إلا لإرادته. أمّا ما يرتبط به طوعًا من علاقات الحبّ والمودّة التّلقائيّة، والتى كثيرًا ما تكون حيويّة وفعّالة، فإنّه لا يُثقلها أبدًا بعلاقات وفاء وإخلاص ولا بوسوسة العاطفة. كان حزمه وحميّته تخدمان بطريقة بسيطة وفطريّة قضاياه الشخصيّة قبل أىّ شىء آخر، أمّا حيويّته ونشاطه فهو يتحالف بهما مع كلّ واحد، وكان ارتباطه بملوك وسلاطين شتّى ينبثق بصفة خاصّة من حسّ سياسىّ مرهف، مع أنّه كان يتأثّر أحيانًا فيجذبه هوى أو نزوة قوامها الهزل والمزاح، تُغْريه فلا يَقْوَى على الصّمُود ويَنْسَاق إليها.

كان لطيفًا أنيقًا، ورشيقًا نبيلاً، كريم المحتد عريق النّسب، قويًا شديدًا، كالجواد الأصيل سواء أُعدّ للحرب والقتال أو للاستعراض والمباهاة، فيهجم ويدور حول نفسه، ويرفع رأسه ويخفضها، كان يعدو متّبعًا سبلاً وعرة فى عصر لم يُعهد مثله بلْبَلةً واضطرابًا وصَخَبًا وإبْهَامًا.

سُمِعت صلصلة طقم فرس ووقع كثير لحوافر الخيل على بلاط الأرض، صعدت الزّقاق، وتوقّفت عند عتبة البيت.

دخل خلدون المنزل وقد أضْحى منزله، ودخل القاعة الكبيرة وسط مجلس كلّه إطراء وثناء، وَلَجَ برشاقة وانبساط وجدّ ولُطْف وظرْف.

فتح ابن الخطيب أحضانه وعانقه قائلاً:

- أىّ رياح سعْد حملتك إلينا؟

- تهبّ الرّياح حيث شاءت، والإنسان يفعل ما فى وسْعِه فى العاصفة، إلاّ أنّى - يا أسيادى ويا صديقى - أخُصّ بالثّنَاء والحمدِ امرءًا ينتهى به المطاف عند مدينتكم ويقرع أبوابها!

- جوابٌ يليق بخلدون!

- وأيضًا: مات السّلطان، ويحيا الوزير! وسيموت الوزير؛ فكن حريصًا على رأسك وحذار أن تُجزّ رقبتُك، أودّ أن أنقش هاتين

الجملتين فوق أبواب قصورنا كلّها، وسأزيد كلامى دقّة: إنّ رياح فاس كانت تفوح منها رائحة كريهة لا تنذر بخير لمن أوتى حاسّة شمّ مرهفة، هل خبرتَ ولو مرّة واحدة كم تؤثّر حاسّة الشمّ فى مشاعر الإنسان ووجدانه؟ كان هناك حاكم له سلطة وقتيّة رفض مُلتمَسى فى إخلاء سبيلى حتّى تَتَسَنّى لى العودةُ إلى مدينة تونس مسقط رأسى، فاخترت الذّهاب إلى تلمسان، فكان الرفضُ أشدّ.

قال ابن الخطيب مُبْتسِمًا:

- وهو ما أحبّذه وأرتضيه.

- أى واللّه! ما من شكّ فى ذلك! تلمسان هى قلب الرّحى وملتقى كلّ الأسباب التى يكون بها الحلّ والرّبط، تُثَبّت المرء فى موقعه أو تطرحُه أرضًا، وكانت غرناطة حُلمى ومُناى، فاستخدمت ما بقى لى من نفوذ بُغيَةَ بلوغِها.

- وأُسْرتك؟

- بقى أهْلى وولدى عند أخوالهم بقُسَنْطينة، يقطنون منزلاً أزرق اللّون، تحت أوكار اللّقالق وأجنحة الحمام، خطيب... يا خطيب، ما أعظم فرحتى برؤيتك من جديد! ويا شيوخى وأترابى لِيَهبكم اللّه اليُمن والبركة، فأنتم قد جلبتم إلى المجالس المغربية عِلْمَ الأندلس ونُورَها، أنتم رفاقى فى المناظرات والأعياد، وأنتم معشر الغرناطيّين سأتعرّف عليكم وأتعوّد على أسمائكم وتصبح عزيزة إلى قلبى!

انهال عليه الحاضرون بأسئلتهم وألحّوا عليه فيها، فعرض عليهم ترتيب الأحداث قديمة العهد منها وحديثته، وأشار إلى أسبابها، بكيفيّة فائقة ورائعة وفصيحة ولامعة.

ذلك أنّه بعد أسوأ مأساة نزلت بالقصر، أصبح الوزير الآثم وصيًا على الإمبراطوريّة، وفتحت يداه سجن خلدون وأخرجتاه منه. فرأى خلدون نفسَه وقد خُلعت عليه عباءة فرو تشريفًا له، وامتطى جوادًا من الإصطبلات الملكيّة، وعاد إلى مسكنه وقد غُمر بالهدايا وأغدقت عليه العطايا وأعيدت إليه ألقابُه ووظائفُه(٢٥).

إلاّ أنّ عاصفة هوجاء هبّت من جديد على البلاط، مات الوزير، وعُزل السّلطان الصّغير سعيد، خلعه عمّه عن العرش وقد عاد من الأندلس، ولم يكن ظهور هذا الدعىّ المطالب بالعرش منتظرًا. وألحّ على خلدون كى يلتحق به، فانضمّ إليه وضمّ أيضًا الخصوم والفرق المعادية، فكان جزاؤه على صنيعه هذا أن عُيّن كاتبًا خاصًا للملك، أفَحَتّمٌ عليه أن تؤول إليه دومًا أكثر الأعمال دقّة وخطورة والتى يطمع فيها النّاس أكثر ممّا يطمعون فى أىّ عمل آخر؟

---

٢٥ - يقول ابن خلدون: "هلك السّلطان أبو عنان... خاتم تسّع وخمسين، وبادر القائم بالدّولة الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنتُ فيهم، فخلع علىّ وحملنى، وأعادنى إلى ما كنتُ عليه. وطلبتُ منه الانصراف إلى بلدى، فأبى علىّ، وعاملنى بوجوه كرامته ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقض عليه بنو مرين" (التّعريف، ص ٦٨).

ما كان خلدون ليلحّ على مئات الجزئيّات الّتى يزخر بها التّاريخ فى عَوْدِه الأبَدى وتكراره الدّائم، ليس إلاّ حكمُ طاغية عابرٌ ومتعكّرٌ، واستبداد وسيادة عارضان سريع زوالهما، ولُعَبٌ بين يدى القدَر مُبْهم المآل كلّ ذلك يصّدم بعضه بعضًا ويهشمه ويتدحرج ويتقلّب كحطام سفينة تتلاعب بها الأمواج المتلاطِمَة.

وتكلّم الخطيب وروى كيف أنّ الخليفة فى يوم من الأيّام - وقد كان خُلِعَ بدوره - اضطرّ هو ووزيره الشّاعر إلى التوجّه إلى أبى سالم سلطان فاس مُلتجِئَيْن إليه مُلتمِسَيْن منه المعونة، وكان خلدون هناك، ينعم بكامل الحظوة والمحاباة، وقد أصبح منذ عهد طويل أخًا روحيًا لخطيب، فكان المدافع والمقدّم والعارض لشأنهما والشفيع لهما بما لا يُضاهيه أحد.

قاطعه خلدون قائلاً:

- معاذ الله، وإنّما يرجع الفضل فى كسب القضيّة إلى أبيات شعرك التى كنت تنظمها وتترنّم بها وتتلوها صحبة ابن الأحمر، بِمَا أبْكى النّاس شَفَقَةً ورَحْمةً، كما أثّرت فى صاحب المعونة الّذى جئتما تَلتمسان منه الإغاثة، وقد انْتَقَشَت تلك الأبياتُ فى ذاكرتى وبَقِيَت عالقةً بها، فاسْمَعُوها يا سادتى منّى!

وان تَجْبُن الأيّامُ لمْ يَجْبُن النُّهى   وإنّ تَخْذُل الأقْوامُ لمْ يخْذل الصّبْرُ

قَصَدْناك يا مولى المُلُوك على النّوى   لِتُنْصِفنا ممّا جنَى عبدُك الدّهرُ

كَفَفْنا بكَ الأيامَ عن غلْوائه وقدْ رابَنَا منها التعسّفُ والكِبْرُ

وَخُذ يا إمامَ الحقّ للحقّ ثأرَهُ فَفِى ضِمْن ما تأتى به العزّ والأجْرُ

ما العُمْرُ إلاّ زِينةٌ مُستَعارةٌ تُرَدُّ ولكنّ الثّناءَ هو العُمْرُ

ومنْ بَاع ما يَفْنى بِبَاق مُخلَّدٍ فقد أُنْجِحَ المَسْعَى وقد رُبِحَ التّجْرُ

ومن دُون ما يبْغيه يا مالك العُلا جياد المذاكى والمُحَجَّلَةُ الغُرُّ

وِرادٌ وشُقْرٌ واضحات شياتُها فأجْسامُها تِبْرٌ وأرجُلُها دُرّ

وشُهْبٌ إذا ما ضُمّرت يوم غارة مُطَهّمة غارت بها الأنْجُمُ الزّهرُ

وأُسْدٌ رجالٌ من مَرِينٍ أعزّة عمائمُها بيضٌ وآسَالُها سُمْرُ

تأجّجت عاطفة خلدون وكان يتكلّم بحماس، وقد ثَمل من الذكرى وانتشى من الشعر، وانجذب إلى جمال صوته السّاحر.

أمّا خطيب فقد هيّجته الذّكريات فجاوبه مستأنفًا القصيدة نفسها:

وأُسْدٌ رجالٌ من مَرِينٍ أعزّةٌ عمائمُها بيضٌ وآسَالُها سُمْرُ

إذا سُئِلُوا أعْطوا وإن نُزِعُوا سَطَوْا إنْ وَعَدُوا أوْفُوا وإنْ عَاهَدُوا بَرُّوا(٣٦)

وَحّدَت الذّكرى والمَوَدّة الصّديقيْن، فاتّحَدَا رُوحًا وباطنًا.

---

٣٦ - انظر قصيدة الوزير لسان الدّين بن الخطيب كاملة فى تاريخ ابن خلدون، مجلد ٧، ص ٦٣٨ - ٦٤٢.

الطّاغية بِطْرُه [٣٧]

طلَع صباحٌ ناعمٌ على غرناطة وقصورها الرّائعة وحدائقها الشبيهة برياض الجنّة، والفوّارات التى تندفع منها خيوط الماء وتتلألأ فى هذا الضوء الطّالع، بَدَتْ أصْوَات النّاس - وقد استيْقظوا منذ قليل - وكأنّها صدى يُرجعه غِنَاء عيُون الماء السّرمدى.

أرسَلَت الشّمس أشعّتَها الأولى ذات اللّون الصّدفى ثمّ الذّهبى فالأرجوانى، وارتسمت على رخام قصر الحمراء، المقام الخلاّب الذى يقطنه الخليفة.

كانت الأندلس متألّقة؛ إذ تشبّعت بثقافة إسلاميّة وقد أضحت بعْدُ عريقة فى الزّمان، كما تشبّعت بعبقريّة قرطاج التى سبقت الشرق

٣٧ - بِطْرُه بن الهُنْشة بن أذْفُونَشْ: Don Pedro, Pierre le Cruel.

الإسلامى إلى هذه الرّبوع والأصقاع، كان حاكم هذه الأندلس السّعيد قد ضمّ إلى رعاياه رجلاً امتاز بذهن فائق، فكان لا يترك فرصة ولا ذريعة تفوت دون أن يُظهر ارتياحَه لذلك ورضاهُ به.

في هذا الصّباح خرج خلدون من المدينة محفوفًا بحراسة هائلة. كان فى الموكب جياد مجلّلة بالذّهب[٣٨]، وهى الأفراس الصّغيرة منقطعة النّظير ذات الأصل الإسبانى، والتى ترقص تحت أغطية الحرير عندما تحمّل بالهدايا أو تحت صفائح الفولاذ عندما تُعدّ للقِتال. أرسلت هذه الأفراس هديّة من ملك غرناطة إلى ملك قشتالة بطْرُه الطّاغية، وهى تُظهر بصفة مؤكّدة الأهمّية والامتياز اللّذيْن تَكْتَسِيهما هذه السّفارةُ التى كُلّف بها خلدون لدى هذا الملك.

اجتاز السّفير وموكبه سهْل المرْج، وهو مرعى كلّه كلأ وزهور يمتدّ بمساحاته الغضّة النديّة طولاً وعرضًا حول المدينة.

وفى صباح يوم آخر بلغ الرّكب أشبيلية السّاطعة بثرائها المُبين، والمُعتزّة بنظام فروسيّتها المتكبّر والفخور، وكانت مسيحيّة بطريقة متشدّدة، وما زالت مع ذلك مفعمة باللّذّات والشّهوات، وكأنّ أصحابَها المُسْلمين الذين كانوا فيها قبل ذلك تركوا لها شيئًا من الرّوح المرتخية والسّخنة والشّهوانيّة التى تنفخ الحياة فى غرناطة.

يُشير رِفَاقُ خلدون فى السّاحات والأزقّة إلى الصّروح والمبانى

---

٣٨ - " هديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقرَبات بمراكب الذّهب الثّقيلة" (التّعريف، ص ٨٤).

والبِرك والأحواض والقناطر المقوّسة التى لم يؤثّر فيها الزّمان.

وقالوا له:

- هذه آثار تشهد على عمل أجدادك وعلى النفوذ الّذى كانوا يمارسونه فى هذه المدينة.

أجداده.. عاشوا هنا، قبل ذلك بقَرْنٍ، ومن هنا هاجروا إلى إفريقيا ليَنْتقلوا إلى خدمة أمراء تونس الحفصيّين.

انبثقت شجرة النّسب الخلدونيّة من بطن من بطون العرب من عبدة الأوثان، وكان الفرع الأوّل فرع وائل بن حجر، رئيس كندة، وكان يسكن حضرموت، وهى مقاطعة خالية فى شبه جزيرة العرب، واعتنقوا الإسلام فى السّنة العاشرة من الهجرة، وجاء أحد بنى خلدون، وهو الخلف الثّامن لِوَائِلِ إلى إسبانيا فى جيش الغزو الإسلامى وكان على رأس الفيلق الذى جُنّد من قبيلته، وكانت النّصرانيّة تعيش آنذاك قرنها الثانى عشر، والإسلام ينتشر ويريد أن يُخضعها أو يبتلعها، واستقرّ خلدون الأوّل بقرمونة، لكنّ أولاده فضّلوا أشبيليّة، فَعَظُم أمرُهم من حيث الثروة والعلم، وكان فى عداد خلَفِهم قُوّادٌ فى الجيش بقدر ما كان فيهم من علماء مشاهير(٢٩).

---

٢٩ - يورد ابن خلدون قول ابن حبّان: " وبيت بنى خلدون إلى الآن فى أشبيلية نهاية فى النّباهة، ولم تزل أعلامه بين رئاسة سلطانيّة ورئاسة علميّة " (التّعريف، ص ٥).

وعاشوا هناك حتّى ظهور الموحّدين وهم الذين قاموا بالغزو العربى الثانى لإسبانيا، هذا الغزو الذى حطّم كلّ شىء بناه الغزو الأوّل وثبّته. وقوّض تفوّق الأرستقراطية وغلبتها، رغم ما كان لها من دور خصّب ومفيد ولمّا أصيب بنو خلدون فى امتيازاتهم وتبّأوا بسقوط مدينتهم التى كان فرديناند الثالث يهدّدها، انتقلوا إلى إفريقيا واستقرّوا ببُونَة ثمّ بتونس.

سبقت هذه الأحداث مولد خلدون بخمسة أجيال، لذلك كان على طبيعته النّادرة والمركّبة أن تتأثّر وراثيًا من جانبين: الأب الأندلسى الظّريف والمهذّب، والأمّ الإفريقية التى كانت تَغْلِب لدَيْها الغريزة والاندفاع والنّزوة على المثابرة والتريّث.

أجدادُه...

فى المغرب كما فى قشتالة لم يغيّروا من أمرهم شيئًا، فلم يُخلّوا البتّة بما درجوا عليه وما توارثوه من ميل إلى البذخ والأبّهة والشّر، وكفاءاتهم المتعالية، إلاّ أنّ روح التّفانى والوفاء والإخلاص كان هو الغالب لديهم على وجودهم بأسره، بينما لم تكن هذه الرّوح إلاّ إحدى عبارات التبدّل والتقلّب التى كان أحد أحفادهم يمتاز بها وقد جُبِل عليها.

ومع ذلك، وطيلة عشر سنوات مليئة بالمخاطر والمجازفات والانتصارات، ظلّ مصيره مرتبطًا بالدّولة المرينيّة، عشر سنوات،

منذ اليوم الذى قلّده والى بجاية فى فندق البَطْحَاء مَنْصبا مّا، إلى اليوم الذى فرّ فيه وخرج عن الصفّ والتحق بالعدوّ، وَعَدَا نحْوَ سَبْتَة.

والآن وهو يعيش بالقرب من خليفة غرناطة الذى أنعم عليه وغمره بالمزايا وجعله ندًا لِخَطِيب فَفِيما عَساهُ يُفكّر وماذا يريد تحقيقه زيادة على ذلك؟ فلا يمكن أن يحلّ محلّ صديقه، ذلك أنّ الصِّلات التى أقيمت بينهما على أساس الخدمات المتبادلة والجميل الذى يسديه كلّ واحد منهما إلى الآخر تحجّر على كليهما أىّ فعل يروم به إقصاء صاحبه، ويمتاز خطيب بوجود وزراء عديدين ضمْن أسلافه، كان أبوه ناظرًا على المآكل والأطعمة، وهو الّذى كان التلميذ المحبّب إلى الطبيب الشهير هذيل، وقد نهل من الفلسفة بقدر ما نهل من معارف الصّناعة الطبّيّة، فزهد فى ذلك ليبقى شاعرًا لا غير، وها هو الآن وزير، ظِلّ المَلِك عينه... نَعَم يصير المرء وزيرًا... ولكن فيما يخصّ خطيبًا هذا وخلدونًا، أكان محتّمًا عليهما أن يبقيا وكأنّهما كمِّين للقفْطان الملَكى؟

إنّها هواجس جوفاء لا تُرْجى منها فائدةٌ.

دخل خَلْدَ قاعة المجلس حيث جلس المَلك القشتالى الأبِىّ اللّطيف صاحب الرّوح الفروسيّة ليستقبل السّفير.

يروق ما يمارسه من غواية وما يتوخّاه من إغراء لِبطْرُه الطّاغية، الذى كان هو أيضًا لا يَأْنف من أسْرِ القلوب وفِتْنتِها، كان يعلم تمام

العلم قيمةَ الرّجل وكان يقدّر لُطف السّفير الذى أوفد إليه ونباهتَه، وكان طبيبُه ومستشارُه اليهودى إبراهيم بن زَرْزر أثْنَى عليه عنده ومجّد له مُجْمل وظائفه ووشائجه الإشبيليّة. إنّه حقًا زينةٌ وفخرٌ لكلّ تاج!

يتبادل الرّجلان الأقوال التى تَتَنَافَسُ مَهارَةً وكانا مُختلفى الطّبع مِن حيْثُ الأصلُ والسّلالةُ، فكان كلّ واحد منهما يتلقّف فى كلّ جولة الأحاديث التى يقولها مُخاطبُه ببراعة، كان بِطْرُه وجيزَ العبارة، مُبْتسمًا سريعًا وحادًا، وجازمًا فى ما يُدقّقه ومطلقًا فى ما يَضبطه. وكانت كلّ كلمة ينطق بها تعنى بالضبط ما كان يريد أن يقوله، أمّا فى رأى خلدون فإنّ الجُملة لا تُظهر معناها الحقيقى بصفة تلقائيّة ومباشرة، مهما ادّعى صاحبُها الوضوحَ فى التّعْبير. وتَفْرض عليه عادتُه التى لا يسَعُه الانفكاك عنها أو التّقليص منها واحتراسه الطبيعىّ الذى تشوبُه مواربةٌ جذريّة أنْ يَرْسم حَوْل هَدَفِه دوائرَ تتقلّص وتَضيقُ شيْئًا فشيئًا كما تفعل الطّيُورُ الكَوَاسِرِ قبْل أن تَهْوِى وتَنْقَضّ على فريستها.

ولمّا حصل السّفيرُ على موافقة إتْمَام عَقْد الصّلْح الذى كان قد أُبرِمَ ما بيْنَ بِطْرُه وبين ملوك العُدْوَةِ،أى السّاحل الإفريقى، اقترح الملك عليه بغتة:

- أقِمْ عِنْدَنا، وسنردّ عليكَ تُراثَ سَلَفِك بإشبيلية.

كان خلدون يُجِيلُ عَيْنَيْن نصْف مغمضتين وابتسامة مبهمة بين وجه الملك الفخور واللّطيف ووجه اليهودى زَرْزَرْ النّحيف والمرتعش والمطبوع بعلامات الحذر والمَكْر والحنين.

- أرجو منك المعذرة، أيّها الملك، دعْنى لا أحتفظ فى ذاكرتى إلاّ بانبهارى ودهشتى بحسن قبولك، وما توحى به إلىّ استقامتك وحكمتك من إعجاب. إنّى مدين إلى الخليفة، مولاى وصديقى، بأن أنصرف إليه عائدًا وأُطْلعه على نتائج سفارتى، ومن أدرانا؟ - لعلّى لن أستقرّ هنالك كما لم أستقرّ هنا؛ نظرًا إلى التقلّب الكثير الذى عليه أعمالُ البشَرِ وشَهَواتُهم.

- يا لك من طَيْرٍ مُهَاجِرٍ...

-... يشْرَع فى طيرانه فى كلّ فصل، حتّى وإن يكن لى اسمُ مستشارك المُقَدّم فى الطّبّ والنّجَامَةِ!

ترجم زرْزرْ للملك إشارة خلدون إلى هذه اللّفظة التى تعنى فى اللّسان العربى الزّرْزور الطّائر.

ثمّ قال زرْزرْ بعد قليل:

- بالتأكيد، يا خلدون، لن تمكث هنالك، رغم كلّ الجميل الذى مُنِحتَه أو بسبب الحظوة التى خُصصْت بها والامْتِيَاز الذى وُهِبتَه.

أرى فى خطيب امرءًا حسُودًا ونفْسًا قَلِقَةً ومُتكبّرة؛ إنّ تَسَاويكُمَا، هذا إن لم أقُلْ تَفَوُّقك، سيَجْعله يَنْزَعِجُ ويَسْتَاءُ...

أجاب صديقُ خطيب وهو يتَكلّف المزاحَ:

- يا ابن الأنبياء!

الورود

يَلُوحُ من بُعد حَقْلُ ألْبيرَة الزاهى من أراضى السّقى بِمَرْجِ غرناطة، وكأنّه سراب فى أفُق يَكْتَنفه البُخار. وهناك يُقيم خلدون وأسرتُه فى الصيّف.

ها هو ذا، وقد عاد مِن إشبيليّة، يسبق موكبَ فُرْسَان يُلَعّبون جيادَهم، وبغالاً محمّلة أمتعة وهدايا، ومن بينها بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيّيْن جهّزت بأمتعة فاخرة وفخمة، كانت هبة شخصيّة من ملِك قشتالة إلى الرّجل الذى لم يَسْتَسْلم للمرّة الوحيدة للإغراء والإغواء.

بلغ خلد إقامتَه بعد أن شقّ أراضى خصبة وحدائق غنيّة حصل عليها من جود الخليفة.

كانت هناك الأروقة والأعمدة تكتنفها رقّةٌ مُضيئة، والأماكن المشبَعة بياضًا مريحًا تحت أقواس زُيّنت بظرف ورهافة، والرّياض

وأحواض الزّهور تزخر كالمهرجان بالألوان البهيّة، وسمفونية الخزف المزخرف بألوان متدرّجة، وبرودة المياه المتفجّرة والمتدفّقة، وشذى الورود، وأنظار الأهل الرضيّة والسّعيدة. كلّ ذلك كان فى استقبال خلدون وبَدّدَ السّحُبَ الدّاكنة التى ولّدتْها فى نفسه أقوالُ إبراهيم ابن زرْزرْ.

- إنّه لتنبّؤ غير ذى قيمة من يهودىّ سريع التأثّر وظَنُونٍ ومُرْتَابٍ!...

كان ثلاثة أطفال يلعبون تحت الأروقة، ثلاثة أطفال فى غاية الجمال والبهاء والفخر والإباء، وكأنّهم آلهة فتيّة. كان ما ينعمون به من رَوْعة وسِحْر فى ضيْعة أبيهم ومولاهم الأندلسيّة يُوَاسيهم ويُسَلّيهم عن زمان العزلة والانقطاع، هذا إن لم يكن زمان القِصاص والنّدم، الزّمان الذى قَضَوْه بالمنزل الضيّق الأزرق المعلّق فوق الهاوية المحاذية لصخرة قسنطينة. أمّا قَمِيرَةُ النّاعمة الرّقيقة فقد أصبحت ابتسامة صافية ولمسةَ مُداعبَة ومُلاطفة، وقد سعِدت بأمومة تفْخَرُ بها، وكلّها شرف وبذخ ورفاه وهناء.

- ماذا كنت تفعلين - يا حبّة المسك - طيلة غيابى؟

- يا مولاى، عَجنتُ بنفسى فى الرّاتنج والقرنفل وعطورك المفضّلة من اللّؤلؤ والدرّ ما يَكْفى لنَظْم عقود وقَلائِد، كم كانت

السّاعات طويلة! وكنت آمل أن تزورَنى زوجةُ لِسَانِ الدّين بنِ الخَطِيبِ التى اعتادَتْ التردّدَ علىّ كثيرًا؛ ولكنّها لم تَجتزْ هذه العتبة منذ زمن طويل.

كان اليهودى مُحِقًا؛ وخطيب يحسده الآن...

أضافت قميرة قائلة بِمَرح وصبْيانيّة:

- أظنّ أنّه شقّ عليها كثيرًا الشعور بعقْمِها أمام جمال أبنائك. رغم أنّ الورود أينعت وحان وقتُ قطافها وكذلك أزهار البرتقال التى يتّخذ منها إماؤها عادة مربّى عَطِرًا...

وخطيب هذا، الوزير الذى يحسده النّاس، والشّاعر الفحل، العارف من المقام الأوّل بِفَنِّ التّراسُل، أليس فى مأمن من كلّ شدّة ومرارة يحسّ بها إزاء غيره؟ هل يجب له أن يعرف طموحًا وهمًا غير نظم الأبيات الجميلة وتخيّل الصّور النبيلة؟

استعرض خلد من جديد الأبيات الشهيرة لصاحبه الذى أضحى خطرًا عليه، وهى رثاءٌ لسُلطان قَضَى نَحْبَه(٤٠)

إنْ بَانَ منزِلُهُ وشَطَّت دَارُهُ ... قَامَتْ مَقَامَ عِيَانِه أخْبَارُهُ

قَسَمْ زَمَانَكَ عَبْرَةً وعِبْرَةَ ... هذَا تَرَاه وهذه آثَارُهُ

---

٤٠ - أى السّلطان أبو الحسن بن الأحمر.

النّصير
الطائر المهاجر

يا له من زمن فريد ويا لها من حِقْبَة متقَلّبة مُضطربة، زمن فريد يَحْتَرق فى بَذَخ إفريقيا الشماليّة ونَكَبَاتها كما يحترق مشعل مدخّن أو نار على عَلَم!

حوضُ البحر الأبيض المتوسّط فَضَاء تَشقُّه آلافُ الطّرق البحريّة لتبادل الثروة والتّحالف والتّنافس والنّزاع بين الشّعوب المُتجاورة التى تعيش على ضفاف هذه البحيرة، وهى إيطاليا التى بُعثت فى شمس النّهضة البازغة، وفرنسا التى كانت تكثر من معابدها المسيحيّة فى روْعة الفنّ الغوطىّ القروسطىّ ورَوْنقه، وتتزيّن بأسلوب ذهبىّ، وبشَكّات وكأمات منقوشة وقنبرات وقنزعات ومخمّلات، وكان الحبّ ينافس الفروسيّة.

وفى إسبانيا استقرّت مسيحيّة فاخرة وفخمة هى أيضًا، إلاّ أنّها كانت أكثر شدّة وصرامة وظلمة، وحافظت مملكة الأندلس على لمعانها، إلاّ أنّها كانت تلمع ببريق نهائى وأخير.

تتشنّج السّلطنات بشمال إفريقيا وتتحمّس وتتَجَابَهُ وتقسّم الدّولة وتفتّتها، وتقوّض أسسها القديمة المتداعية، هذه الدّولة التى آلت إلى كثرة مفرطة يتقاسمها صغار الملوك، ثمّ إنّ مدّة حكمهم تفرضها الدّرجة التى يكون عليها نفاذ الصّبر والشّغب والهيجان والاضطراب التى تكون عليها الصفوف، أو ظهور أحد الأقارب أو عَبْد معتق أو جَارٍ جَهَر برغبته فى الحكم وطمعه فيه.

ويظهر من فترة إلى أخْرى رجالٌ تتغلّب عبقريّتُهم وتصوّراتُهم المتقلّبة على النّزاعات وتُعجّل بأوانها، فيَعقبُ الانحطاطُ الدّامى فجرَ الانتصار على ممرّ الأيّام المفعمة غدرًا وخيانة وصخبًا وضوضاء وجرأة ودسائس، وهى كلّها قوى فعّالة، ويبرز أفرادٌ وُهبوا كلّ الإمكانات البشريّة وذاك الحسّ المرهف الذى يتفطّنون به إلى الفُرص والمناسبات الملائمة، وهو ما يصنع كبارَ المغامرين الذين يَقُودون الرّجال، والذين يهدمون العُروش، والذين يغْتصبونها. وسواء كانت طموحاتهم بطريق الحساب والتّدبير أو بطريقة عَفْويّة ومباشرة فإنّ كلتا الطّريقتين تساعدهم تارة وتضرّ بهم أخرى، وبيّن أنّهم أوتوا نوعَ غريزة فى الكهانة وسليقة فى التنبّؤ بنتائج أعمالهم وتبِعات أفعالهم، إلاّ أنّهم لا يتّبعون إلاّ تفاؤلهم الجشع ولا يطيعون غيره.

وهكذا كان خلدون، هذا الدبلوماسى والنّديم الرحّال، والطّائر المُهَاجِر، طائر العاصفة والحريص أشدّ ما يكون الحرص على التّحْليق عاليًا ووَحِيدًا.

وها هو الطّائر يَقَعُ على وَكْرٍ جديد.

عمل كاتبا وسفيرًا ونجيًا مؤتمنًا على الأسرار، وقاضيًا وشيخًا فى الفصاحة ومستشارًا؛ وهو الآن وزير وحاجب، وهو عبارة عن نائب الملك، مُستَبِدّ وله اقتدار مُطلَق على بجاية وسلطنتها.[٤١]

كان شذى أشجار الزيتون واللاذن المزهر يكتنف المدينة ويتضوّع وينتشر ويسرى ويغوص ويصعد ويذوب فى رائحة البحر المُنْبَعثة عن الموْج فى إيقاعه، وفى فصل الرّبيع ينْشرح البحرُ ويَزْهو ويتفتّح عن زبَد خفيف، ويرقص ويمرح على طول الأسوار اللامعة.

يمشى خَلْد ويجىء ويذرع الرّواق العالى الذى أضيف بناؤه إلى قلعة القرون الوسطى المشرفة على البحر وعلى المدينة، كان يبتسم لحظّه الجديد ويُدَاعبُ بنَاظِرَيْه الأمواج التى أرجعته إلى هذه الضفّة. تقاذفه البحر القلّب طيلة أربعة عشر يومًا لم يعْرف فيها سوى القلق والاضطراب، منذ ذاك الصّباح الذى غادَرَ فيه إسبانيا،

---

٤١ – يقول ابن خلدون: " ومعنى الحجابة فى دُولنا بالمغرب الاستقلال بالدّولة، والوساطة بين السّلطان وبين أهل دوْلته، لا يُشاركُه فى ذلك أحَدٌ " (التّعريف، ص ٩٧).

وكان على عادته موطّد العزم متهكّمًا مستهزئًا حازمًا نشيطًا. وأركب البحْرَ بميناء المرية الزوجةَ والأبناءَ الآسفين والعبيدَ الواجمين.

سماءُ الأندلس، سهْل غرناطة، ألْبِيرَة؟ حلم ليلة، مَحطّة قافلة...

صدق اليهودى زَرْزَرْ، تغيّرت مودّة خطيب وانقلبت إلى عداوة حاقدة، وجد الخليفة نفسه يتجاذبه ضرْبَان من الفَصَاحة ونَهْجان فى الدّبلوماسيّة، وَصَنفِيّان طَيِّعَان أحيانًا عَصِيّان أحيانًا أخرى. فانزعج من ذلك وضَاقَ به ذرْعًا.

على أنّه فى هذه المبارزة الغريبة كان ينبغى على ما كان يبدو أن يَبْقى خلدون منتصرًا، إلاّ أنّه بلغته رسالة من أخيه يَحْيى الذى كان يَصْغره سنًا وكان يميل بطبعه إلى التأمّل والكتمان بطبعه، وكان لا يستنكف من أن ينشد الانزواء والتّواضع ويقوم بالأعمال العادية والهادئة فكما كان يطيبُ له أن ينجزها ويشعر فى ذلك بمُتْعة دفينة، فلم يكن مثل خلدون، ذلك المرء الذى لا يمرّ يوم دون أن يكمّل وثيقة أو يكتشفها، ويدوّن نكتة أو لطيفة، ويسجّل أمرًا بارزًا، ويستنبط أو يستنتج أمورًا من سرٍ لم يَبُحْ به صاحبُه بوحًا تامًّا. كان يَوَدّ لو أنّه جمع من المادّة ما يكفى لتأليف بعض الكتابات بتريُّث ودون تَعَجّل إذا ما توفّرت الملاحظة المساعِدة والصّبورة والتفكير الهادى الرّصين. كان خلدون يقدّر القيمة التى كان يكتسِيها طبعُ

أخيه فيما يمتاز به من ثقة وصحّة، فأخذ رسالته مأخذ الجدّ واعتبرها بما لها من وَزْن.

وكان من بين الأمور التى أنبأه بها يحيى ما يلى:

"صديقك القديم من فاس، الأمير أبو عبد الله استردّ عرشه ببِجَاية، وشاءت الصُّدَفُ أن أقوم لديه - بصفة وقتيّة لا غير - بالوظائف التى تعادل الوظائف الأكثر طلبًا من النّاس ورغبة فيها. ولا يُخْفِى السّلطان أنّ حلمه هو أن يقلّدك إيّاها بصفة دائمة ونهائيّة، أنت دون غيرك. وقال: " وقد ننتهى بذلك من إنجاز خطّتنا التى بقيت متعطّلة..."

حدّث خلدون نفسه قائلاً على سبيل التّدقيق:

- ... فَيُكلّفَنِى ذلك سنتيْن من الأسْر.

بَسَط الطّيْرُ الرَّحّالُ جناحيْه واستأنف طيرانَه بعد أن توارى عن خطيب وأفْلَتَ من مَسَاعيه الحازمة.

وتراءى له من جديد، وأمواج بحر الرّوم -كما يسمّيه- تهزّه، صديقُه سابقًا وتخيّله وهو يحكم هذه المدينة العتيّة التى أسّسها النّاصر، السّلطان من قلعة بنى حمّاد، وقد أراد أنّ يتّخذها عاصمة ثانية، وانتزع النّاصر قرية تقع فوق جبل بجاية وتقطنها قبيلة بربريّة لها الاسم نفْسُه، وهى بقايا من عشيرة صنْهاجيّة. وعلى هذا الجبل أنْشأ المدينة القويّة التى سمّاها النّاصريّة، لكن حدث أن رَجَح اسمُ الجبل والقبيلة المهزومة فاشتهرت به.

فى هذا المساء ما زال الهجاد يذكّر بالمدينة الحمّاديّة القديمة فى كلّ فتحة من فتحات الرّواق الملكى، كانت مدينة ضخمة ورائعة، وقد رَسَخَتْ فى ذلك الصّقع أسوارُها المُمتدّة وقُصُورها الجميلة الكثيرة تشْهد على تلك العظمة التى أُطِيح بها، أمّا مدينة اليوم الإقطاعيّة فكانت تُظهر عظمة أخرى.

- أريدُها أن تكون أكثر جمالاً وروعة...

الرّبيع الحلو العذب، الأصيل الصّافى... أيّة نعومة تلك التى يغشو بها اللّيلُ المنزلَ الموسِر والأمينَ، وعندما يستيقظ أهله فى الصّباح الباهر يَحِينُ وقتُ العمل الجدّى وفيه الكدّ وفيه اليُسْر، عمل دقيق حسّاس وجسيم ومهمّ، وكان صاحبه يستخفّ به، وهو الوزير البارع الذى أوتى روحًا مرنة فى جسم نشيط، كان ينظر فى أمور النّاس ويعالجها قبل أن يذهب إلى المسجد الجامع بالقلعة، حيث كان يعظ ويدرّس الفقه، أمّا السّاعات الموالية فكان ما يخصّصها منها للألفة والأنس فى داره أقلّ ممّا كان يخصّصه منها للاجتماعات التى كانت تمتاز بالأبّهة والبذخ، وتخضع للعمل الذى كُلّفه والعبء الذى أنيط بعهدته بقدر ما كانت تخضع لأذواقه وميوله الشخصيّة...

وعلى حين غرّة ثارت موْجةٌ من الصّخب والضّجيج فى اللّيل الذى بدأ ينزل على المدينة، أطلّ خلدون على الزّقاق الصّاخب وقد امتلأ لَغْوًا وهَمْسًا، ثمّ امتلأ فجأة بالفُواق ونحيب النّادبات المرتفع

وعويل النّائحات الشّديد. اقتحم أناس الرّواق على الرّغم من الحرّاس والعبيد.

- مولانا الحاجب، مات مولانا السّلطان أبو عبد اللّه، قُتل فى المعركة منذ أوّل التحام مع سلطان قسنطينة...

ترنّح الوزير. أىّ واقع كان عليه أن يُدْرِكَه حتّى يَسَعه أن يُوطّد قدمه ثانية ويرتكز على حقيقة واضحة وجليّة؟

ها قد مرّت ثلاثة أيّام منذ أن شَهَرَ السّلطان أبو عبد اللّه الحربَ على ابن عمّه السّلطان أبى العبّاس صاحب قسنطينة، الذى كان يطمح إلى أن يفتكّ منه مدينته بلا قيْد ولا شرْط، فتصادم الجيشان فى منتصف الطّريق الرّابط بين المدينتين العَدُوّتين، وها هو عبد اللّه، صديق اليوم والأمس، لم يَعُدْ موجودًا...

قدِم هذا الوفد من النّاس على خلدون وقد تملّكهم الذّعر والاضطراب وقالوا له:

- مولانا الحاجب نضع من الآن كلّ الأمور بين يديك. فَأَنْت لكَ الحكمةُ والرّفعةُ والتفوّق. فَقُمْ بالأمر وَنَادِ بالبيْعَة لِمَنْ شئتَ من أبناء السّلطان واحتفظ بالوصاية. إنّا نتوسّل إليك.

عاد توازنُ خلدون فورًا إلى ما كان عليه. تَنْتظمُ الأحْداث وتَبعَاتُها وتَترتّب فى دماغه السّريع، وقد وَزَنَتْها تجربتُه وقدْرتُها خِبْرَتُه. ينبغى له أن يحصل على متّسع من الوقت يضبط فيه بدقّة مشروعه الذى يخصّه.

- دعونى اللّيلة أبكى الصّديق المفقود، غدًا سنَتَدبّرُ أمرَنا ونَعْملُ معًا.

انصرف أهل بجاية ينتابهم القلق إلاّ أنّ الثّقة كانت تحدوهم.

صار اللّيل حالكًا، وهو ملائم وزيادة.

وقبل صلاة الفجر خرج رجل وجواد من بابٍ خفىّ من أبواب السّور مُعْتم جدًا.

كانا حريصَيْن على ألاّ يَتَجاوزا حُدودَ الأماكن المُظلمة فوق الأرض، وانساب هو وجواده تحت أشجار الزّيتون المُزهرة واختفيا فى الأدغال المتشابكة والمتداخلة.

لعلّه وزير

طَلَعت الشّمسُ وحطّت أشعّتَها على جَوَاد صغير جَمُوح ذى أصْل أندلُسِى وفارسٍ يَرْتدى رداء لوْنُه شبيهٌ بلون أَخْيِلة اللّيل فى أوّلِه.

انتصب الفارس على سَرْجه ومَدّ ذراعه نحو الكوكب. وَهَزّهُ نشاط وجَذل معهودان، فمهما كانت الظّروف ومهما كان الرّعب أو الأمل اللّذان كان يشعر بهما خلدون فى مصيره الملىء بالمخاطر والمُغامرات، لم يشهد أبدًا الصّباحَ يَلِدُ من جديد إلاّ وَغَمَرَت كيانَه كلَّه فرحةُ بَعْثٍ ونُشورٍ شاملة ووعود فاتنة وباهرة.

وكان طبعه الشّغوف بالنّشاط والحركة قارًا ومُتّصلاً اتّصالاً يكاد يكون غَرْبِيًا وليس فيه من روح التأمّل شىء من شأنه أن يقوده إلى التّهدئة والسّكينة والكآبة التى تنتاب النّاس عند الأصيل. إنّه الرّجل الجديد الواثق فى كلّ صباح.

كان يغنّى وهو يدفع بحصانه إلى العَدْو مِن جديد.

دنا من معسكر جيش قسنطينة فعايَنَ الفوْضى التى كانت عليْها الفيالق المهزومة ولم يبق لها من نصيب إلاّ الغمّ والحداد، كما عاين الفوضى التى كان عليها الجيش المنتصر، اعترضت السيّد الحاجب وجوهٌ مقطّبة، وقد تعرّفت عليه وحَيّتْه، ولا أحد يعلم ماذا يحمل معه فى ردائه، أهو زيادةٌ فادحةٌ فى الخزْى والعار، أم تخفيفٌ من الإهانة التى أصابت المهزومين فى أنَفَتهم وشرفهم، أم مواساة عن آلامهم وحسرتهم.

قال خلدون لحرّاس السلطان المنتصر، وقد لمس منهم السّخرية:

- قُودُونى بين يدى أبى عبّاس.

استقبله سلطان مدينة الحمام واللّقالق عند عتبة خيمته.

- أنت خلدون؟

- أبو زيد عبد الرّحمن بن خلدون وألقّب بولىّ الدّين، حاجب بجاية اليوم، والوصِىّ غدًا.

ابتسم الرّجلان نصف ابتسامة، وتقاطعت الابتسامتان كمَا تَتَقَاطَعُ سيُوف القِتال.

- أنا هو مالِكُ النّصْر وسَيِّدِ الغَدِ. ماذا جئتَ تطلُب منّى أو تمْنَحنى إيّاه وأنا لا أقدر أن آخذه بمُفردى؟

- لنتحدّث، كلماتٌ قلائل تُغنى عندما نخاطب أحد النّبلاء، والحال أفضل إذا ما كان المخاطَب أميرًا مثلَك أنتَ.

جلسا الاثنان وتقلّصت ابتساماتهما وأضفيا عليها مزيدًا من الرّيبة. قال خلدون وقد قوى تلهّفه:

- أقول لك إنّ لى ذكريات مؤسفة إلى حدّ كبير حقًا عاشها الغيْرُ -وهم كُثْر- ممّن خَبِرُوا الوصاية على العرش، وهو ما قد يكفى لإدراك السّبب فى عدولى عن الوصاية التى يريد أهل بجاية تقليدى إيّاها طوعًا أو كرهًا لكن فى حياتى بكاملها من المخاطر التى جابَهْتُها والأعمال التى أنجَزْتُها وكلّها مُجازفة وجسارة ما يخوّل لى أن أبوح لك بوجود باعث غير ذلك دفعنى إليك، وأنْ أُقْنعنك بذلك. هذه المدينة، وهى الآن على ملكى نوعًا ما وأنتَ تطمع فيها، سيذهب جهدُك سُدًى فى اختراق أسوارها، أنا أهَبُكَ إيّاها، وسأبْقى حاجبًا لحاكم جديد، هذا كلّ ما فى الأمر.

قال القسنطينىّ فى نفسه:

- إنّك خلدون بحقّ.

ثمّ قال بصوت عال:

- تقدّرُ أنّ استسلام بجاية أمر مضمون، يتمّ بيُسر دون مقاومة ولا قِتال.

- هذه عُنُقى ضَمَانٌ فى ذلك.

بدأ القلق يَنْتاب سُكّان المدينة هنالك. انْقَضَت اللّيلةُ ومَرّ وقْتُ الزَّوَال. لمْ يَرَ أحدٌ السيّدَ الحاجب فى أىّ مكان خفىّ يا تُرىَ انزوى لِيَبْكى صديقَه؟...

أَطْلَقَ حارسٌ إنْذارًا عند الأسْوار!

كان إنذارًا باطلاً. ثمّ كان الذّهول.

رأى الحُرّاس مَشْهَدًا سَيَراه أهلُ المدينة مِن بَعْدِهم، رأوا الحاجبَ وهو قادم على صهوة جواد إلى جانب السّلطان المنتصر، يتْبَعُهما جيشان متآخيان.

- افتحوا الأبوابَ. سَلّمُوا المفاتيحَ!

قَبِلَ السُّكّانُ، وقد رضَخوا من شدّة الجزع والذّهول[٤٢]

آنذاك نصّبَ خلدون السّلطانَ الجديدَ، ثمّ نَظّم مأتمًا عظيمًا للسّلطان الميّت.

---

٤٢ - لا يظهر من كلام ابن خلدون أنّه فعل ذلك دون رضا من أهل بجاية؛ إذ يقول: "نهض السّلطان أبو العبّاس سنة سبع وستّين، وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وَجِلين من السلطان أبى عبد الله بما كان يُرْهِفُ الحدّ لهم ويشدّ وطأته عليهم؛ فأجابوا إلى الانحراف عنه" (التّعريف، ص ٩٩ وكذلك ١٠٠).

الزّوجة

كان يفكّر فى هذه المرأة، امرأته.

كان ينظر إليها كشىء طارئ وغير متوقّع، يكاد يكون غريبًا، رآه بغتة من بين شتّى الأشياء المعهودة، ولا يمكنه أن يقول عنه إنّه اقتناه عن اختيار متروّ ومدروس وحصيف، وفجأة شعر نحوه بنوع من خيبة أمل ومن السّخط وكأنّه ظلم لحقه ولا يَقْدر على تجَنُّبه، أو إهانة لا مبرّر لها وجب عليه أن يتكبّدَها.

كان منذ اعتلى الحاكمُ الجديد العرشَ يشعر بالعزلة والإقصاء، وكان أهل بجاية يتلقّونه بوجوه عابسة ويُعاملونه ببُرودة وجَفاء، وكان يتبيّن على الخصوص فى موقف السّلطان ترقّبًا حذرًا واحترازًا لا شىء يخفّف منه، وكان لا يرى نفسه مسؤولاً عن تلك الوضعيّة، إلاّ أنّه كان يودّ أن يجد امرءًا ذا روح فهيمة أو ذا أذن صاغية يثق به

ليبوح له بالأسباب التى أَلْهَمَتْهُ صَنِيعَهُ وبتَقْيِيمِهِ للأحداث وحُكمه فيها وما تُوحى له به من نتائج.

وكانت كلّ علاقاته بالنّاس فى الخارج يشوبها الحقد والضغينة، وكان عُرضة للخيانة والغدر، أمّا ذووه فكان منهم يَحْيى أخوه الذى كان يصغى إليه بكامل الاحترام، لكنّه ضنين جدًا بآرائه فلا يبدى موافقة ولا استحسانًا أمّا أولاده فلم يدركوا بعد سنّ الرّجولة، وأمّا الزّوجة...

كانت لا تزال صغيرة السنّ، لها وجه شبيه بالصّور السّاكنة التى خلّد بها رسّامو المنمْنمات الفُرْسُ شكلها؛ لكنّ الشّفاه الليّنة شحبت، وغار النظر تحت جفون متدلّية مرتخية، وكانت حركاتها البطيئة تعبّر عن كَلَل ونَصَب دائِمَيْن.

انتصبت على طنافس النّوم والمُتْعة، وقامت ساكنة الوجه صامتة الفم، بسطت قماشًا ذا طيّات لا تحصى ومثنّى على طريقة سطُولاً القديمة، ونزعته عنها بدورات لا نهاية لها، وربطت من جديد بيديها المخضّبتين نطاقَها الطّويل المصْنُوع من جدائل الصّوف والحرير.

وواصل خلدون حَديثَه قائلاً:

– ما جرى وما يجرى ليس إلاّ تطريزًا وتَوْشية يَنْضَافان إلى اللحمة فى نسيج حياتنا.

لم ترفع إلاّ جفنيْها عن عينيْن خاليتيْن من البَريق، فهى لم تكن تُسائل مخاطِبها البتّة.

- ... إنّ القدَر، هذا الذى ينسج ويَحيك، يعقد خيطًا بعد خيط، وحرىّ بنا أن نتابع اللّعبة التى يَنظم بها رسمَه وتصويره، وأن نتنبّه إلى العلامات التى تُبيّنها هذه الرّسومُ والتى تدلّ على الطّريق الواجب اتّباعها.

تنهّدت الزّوجة فى النّهاية وقالت:

- لعبة، ما الأمر إلاّ لعبة.. ليست لعبة الحائكة أو النسّاجة، مولاى، وإنّما هى لعبتك أنت، اللّعب، ليس إلاّ اللّعب، اللّعب دومًا أمام المخاطر كافّة... هل يمكن أبدًا أن تحصل الرّاحة، وهل تُكلّفنا جزّ الرّقبة والقتل؟

قال على سبيل السّخرية:

- إنّها لكلمات غير عديمة المغزى، لكنّى أُحَجّر التَّفَوّهَ بها على امرأة خلدون.

خَفَضَت عينيها، لو كانت بنتًا من أصل متواضع لكانت أفاضت فى الصّياح والصّراخ والجدال؛ أمّا البنت النبيلة فلا غير السّكوت يليق بها.

استأنف الزّوج قائلاً، وهو يخاطب نفسه بالمقام الأوّل:

- لا يَختلف الأمَراء عن عامّة النّاس؛ الأوّلون ذوو أفئدة ثابتة، والآخرون ضيّقو العقول والأحكام، وهم أيضًا متقلّبون وغريبو الأطوار.

قالت قميرة بشيء من المجازفة وبصوت بريء وخافت:

- كان عبد اللّه قد غمرك بالنّعم، وأسبغ عليك الخيرات، ولبّى لك كلّ ما كنت تطمح إليه.

- خطأه أنّه مات.

- أوَ لَمَ تحتفظ بجميع امتيازاتك تحت إمرة أبي عبّاس؟ أوَ لمْ يَجْرِ أحْوالك كلّها على معْهود عادتها؟

حسَم خلدون الأمر قائلاً:

- لا تقدر النّساء إلاّ على استخلاص نتائج سخيفة من جميع الوقائع والأحداث، حتّى البداهة ذاتها تغيب عنهنّ فلا يدركنها، لا أقصد بداهة المظاهر، وإنّما بداهة النّتائج وعواقب الأمور. إنّ استدلالهنّ لا يزيد قيمة عن خيط مغزل مختلط ومتداخل يلتفّ حول مرْدَن. أبو عبّاس! هل في وُسعي أن أسمع هذا الاسم يُذكر دون أن تثور ثائرتي وأغتاظ وأحنق؟ أعطيته بجاية وكافأني باحتراز مُهين لا يُطاق. إنّ ما يتخيّله النّاس الحمقى وما يوحون به إليه من خبث وشرّ يجعله يرتاب منّي ويعدم الثقة بي ويصوّرني دائمًا على أنّي على درجة من الحذق والبراعة لا يمكن معها إلاّ أن أكون من

النّوع الخَطِر، فقدْ كَثُرَتْ السّعايةُ عندَهُ فىَّ، والتّحذير من مكانى. أشعر بصرير الأبواب التى تُفتح أمامى فى هذه القلعة أو هذا القصر الملكى اللّذين كان بالإمكان أن يكونا ملكًا لى، وهذه الأبواب التى تُوصَد خلفى بعجلة وتستّر مُفْرطين، فليكن، إنّ رائحة البحر تسىء إلى حاسّة الشمّ عندى، وأشعر بالقلق والضّجر. سأنصرف إذن وأذهب لأتنفّس الهواء الطّلق فى مراعى الصّيف المرتفعة بِجِهَة فرجيوة ومراتعها العالية، يعود الدّواودة الرُّحَّل وقطعان ماشيتهم من الزّاب الصّحراوى، ويبدأون احتشادهم هنالك.

انتاب قميرة قلق أقوى من مراعاة قواعد الآداب المتواضع عليها والصّمت اللّائق بالكرامة، وألقت إليه بعبارتين:

- وأنا؟ وأبناؤك؟

- سنرى... ينبغى أن تفهمينى...

جلست القرفصاء فى أقمشة الجوخ الغزيرة، وَطَأْطأَتْ رأسَها تحت ضفائرها ونقابها وحليها، كانت تنظر إلى يديها المخضّبتين المبسوطتين على ركبتيها.

حقّا، إنّها لا تَفْهَمُه البتّة، ولم يكن قد علّمها ذلك الحبّ الذى يعدل الفهم، أدارت وجهها وصَرَفَت بؤبؤتى عينيها السّوداوين الخاليتين من كلّ عبارة، كعينى غزالة تمّ ترويضها وإيلافها، صرفتهما عن هذا السيّد الفائق المتألّق، والذى كان يُقال عنه إنّه

شغوف بجميع الأشياء متّقد غرامًا بها، إلا أنّها لم تلمس منه إلاّ عدم الاكتراث والتعوّد التّافه.

انتقل نظرها من يديها واستقرّ على صندوق من الجلد القرطبى، مصفّح بالفضّة كانت تُخبّئ فيه زينتها وجلابيبها وأقمصتها وحليها مع عطورها الثّمينة. باشرت يداها المخضّبتان حركة استسلام، كانت تعلم حقّ العلم مقاصد الزّوج ومراميه، وأنّ لعبة التّجوال والمغامرة والصّدف المفجعة أو الرّائعة عادت من جديد.

قال خلدون فجأة وقد هزّه تقلقله المعهود:

- أفكّر فى بسكرة وفى مُزّنى[٤٢] فهو لم يفعل ما يجدر فى العُرف فعلُه، وخالف ما تقتضيه التّقاليد، لم ألاحظ أنّه أرسل الهدايا التى هى عربون الاحترام والولاء والخضوع والتّبعيّة الأميريّة التى وافق عليها والتى يمنحُها أمراءُ الصّحراء وولاتها لكلّ حاكم عند تولّيه الحكم، ما من شكّ فى أنّه يكنّ لعبّاس بعض العداوة والبغضاء، ويعتبر نفسه فى حِلٍّ من أن يهديه جِيَاد الزّينة والمواكب، وجِمَال السّباق والعبيد المختارين الذين يحملون تلك الدّروع اللّمطيّة الشّهيرة المكسوة بجلد الظّباء وبفضله يستحيل تهشيمها. إنّى أفكّر فى مزّنى الذى أعرفه... وفى بسكرة.. التى أحَبَبْتُها..

---

٤٢ - أحمد بن يوسف بن مزّنى.

أغْمَضت قميرة عينيْها وقد انْتابها الدّوارُ، واضطجعت ثانية على الطّنافس.

نظر إليها خَلّد ثانية وقال وهو يناجي نفسه:

- ليست المرأة الصّالحة إلاّ شكوى عنيدة، وجدارًا لا فتحة فيه، وحجرًا أصمّ، وشرًا لا غنى عنه في المنزل، ومحنة ثابتة لا يمكن دفعُها، وعطيّة من السّماء إلى الرّجل يكفّر بها عن ذنوبه...

منزل الطّين

سَمَاء زرقاء، نورٌ صاف أضاء الجوّ العالى. غشى اللّيلُ الجوَّ القريبَ من اليَابسة، واكْتَنَفَت الظّلماتُ الحالِكة الأرضَ، وكان هناك وادٍ منفسحٌ طولاً وعرضًا كلّه حصى ملساء ورمال من الطّمى، بقىَ الوادى يلْمع كلّه وكأنّه يشعّ من حَجَر عيْن الهِرّ.

هناك واحة تابِعة لبِسْكَرَة ممتدّة على الأفق، وهى عبارة عن مُجرّد خطّ من قَطِيفة سوْداء، والقمر فى صُعُوده ينسج من تلك القطيفة، وكأنّه ثمرةٌ لِنَبَات آسيوى هائل ومُخيف، يَحْمرّ القمرُ ثمّ يفْقد لونَه كلّما اشتدّ ضياؤُه وإنارتُه، استتار المشهدُ كاشفًا عن سعَته ودِفْئه، وتَلُوح حينئذ تعَرّجاتُ بُسْتان مُمْتدّ طولاً، فيه النّخيل وأشجار الزّيتون العتيقة، ويتلوّى مُتّبعًا مُنعَطَفات ضفّة الوادى الجاف.

هناك بناء من الطّين المجْبُول شُيِّد فى شكل بُرْج، وشَغَل زاويةً من سطح طبيعىّ مرتفع فى مدخل البستان، وكانت أجَمة من أشجار التّين والرُّمّان، وأدْغال الوُرود المصفرّة والصّموغ العَطِرة، تُخْفى تعرّجاتِ البُستان وزخارفَه.

اهْتدى خلدون إلى هذه الأماكن التى توجد بالذّات على أبواب بِسْكرة، كان ساخطًا، أى قلقًا وغير مرتاح البال إلى موقف الرّجُل القسنطينىّ الذى أصبح سلطانًا على بِجَاية. وانتابَهُ تَردُّدٌ لفترة محدودة من الزّمن، وأراد أن يسْتَنشق الهواء الطّلق قبل الشّروع من جديد فى أىّ عمل. وها هو الآن لاجئ يعيش فى هذه العُزلة التامّة، فقد هرب من بلاط لَمْ يَعُدْ نُفُوذُه فيه غالِبًا، وابتعد فى الإبّان، وما أن قطع المرْحلة الأولى فى طريقه إلى الجنوب حتّى علم أنّ قَصْرَه ببِجَايَة دُوهِم وفُتّش، وأنّ أخاهُ أُسِر بدلاً عنه(٤٤) كانت الأنباء تنْتشر بالسّرعة نفسها التى كان يعْدو بها، غير أنّ السّلطان أنِفَ من مُطاردته.

مَثُل بين يَدَىْ أحمد مُزْنى(٤٥) الذى كان أميرًا على بِسْكرة وعلى جزء من الزّاب، وقال له وهو مُعتدّ بِخِصَاله واثقًا من شُهرته:

– فَلْيَبْتَلِع البحرُ سلاطينَ بجاية أمواتًا كانوا أم أحياءً!

---

٤٤ – يقول ابن خلدون: " ثمّ بدا للسّلطان فى أمرى، وقبض على أخى واعتقله ببونة وكبس بيوتنا يظنّ بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنّه " (التّعريف، ص ٩٩).

٤٥ – مُزْنِى، وتُكْتب أحيانًا "مَزْنَى".

استقبله مزنى، وكان يحْدوه الفُضول لمعرفة ماذا كان خلدون ينوى فعلَه وماذا يُمكنه أن يفعله فى خدمة أحْقاده وأضْغانِه هو بالذّات، وقال له:

- أعرف أبَا عَبّاس حقّ المعرفة، سيتظاهر بأنّه نَسيَك ولن يُطارد البريءَ مكان المُذْنِب مدّة طويلة، فلا تقلق إذن على ذويك، وانظرْ إلى الحاضر والمستقبل، فأىّ جرم ارتكبتَه فى حقّه وفيم أذْنبتَ نحوَه؟

- أعطيتُه مدينةً وأسْدَيتُ إليه بعضَ النّصائح.

- ما من شكّ فى أنّها كانت فى صالحك أكثر ممّا كانت فى صالحه.

- صرتَ ذكيًا يا مزْنى!

- إنّك لا تتَبدّل.

- سأتبدّل، أثناء عَدْوى اكتشفتُ أخيرًا حقيقتى. ينبغى لرجل مثلى أن لا يملك إلاّ جوادَه وخنجرَه وقلمَه.

- يرى النّاس أنّك أغنى ممّا تزعم، وأنّك تمْلك أكثر من ذلك بكثير، يا خلدون العظيم! كان والدى الموقّر قد رآك قديمًا ببلاط تونس، فكان يتحدّث عن عالم فارس ميّال إلى البذخ والتّرف، وأنا أعرف كيْف كنتَ تعيش بفاس وغيرها، يا سيّدى الحاجب.

- يتغيّر الإنسان كالفُصول...

- ... ليعُود ثانية إلى ما كان عليه، إن صحّ حقًا أنّك لا تملك إلاّ حصانًا، فينبغى لك أن تُرْدِفَ معك الحِكْمَةَ.

- وهذا عينُ ما أراه، وفى وُسعك أن تحكم بنفسك: إنّى أفضّل مكانًا منعزلاً أنزوى فيه، على ضيافتك فى الرّخاء والبذخ، أريد بيتًا مُتواضعًا وهادئًا حيث أُقضّى أيّام زُهد وتقشّف، هذا كلّ مَطْمَحى الآن.

- كما يحلُو لك.

أمكن لخلدون إذن أن يتذوّق طعْمَ العُزلة، وهو أمرٌ جديدٌ عليه.

كان يعيش مع خادمين أحدهما مُزارع مُرْتزق وثانيهما حارس الحديقة، ومع كلاب شداد فى منتهى الشّراسة، كان ينتظر.

كان يعلم مليًا، وما كان لأحد أن يجهل ذلك، أنّ تقشّفه وزُهْدَه لا يعنيان اقتناعًا منه وإنّما الانتظار.

كانت نيران الخيام متناثرة تلمع على حافّة الوادى المقابلة فى فضاء اللّيل الرّحب.

كان خلدون يجوب السّطح، ومدّ ذراعيه نحو تلك النّيران قائلاً:

- نيران بدويّة، نيران هِلاليّة! هم هنا منذ ثلاثة قرون، هؤلاء البدو الرّحّل، استقرّ غُبار تِرْحالهم وتوطّن فى الانتجاع التقليدى

المألوف والانتقال من موضع إلى آخر بين أقصى الطّرفين: التلّ والصّحراء. كانت المَوْجة العارمة من القبائل المهاجرة برُعاتها ومُحاربيها قد اكتسحت المغرب وكأنّها فَيَضان مُتدفّق، لا يماثل ما كان لهؤلاء البشر المدمّرين والمخرّبين من قوى إتلاف ودمار وخراب إلاّ السّيْل العارم والعنيف الأعمى الذى لا يَدَعُ ولا يَذَرُ، أتوا على الأخْضر واليابس وكانوا يسيرون وهم يلْتَهمون كلّ شىء ويُفتّتونه. إنّى لأعْجبُ من أنّ عُيُونَ مَاءٍ ما زالت تجرى إلى الآن، وأنّ جُدُرانَ صُرُوحٍ قديمة ما زالت قائمةً، وأنّ شجرة الزّيتون المباركة والنّخلة المقدّسة لم تضمحلاّ بالكلّيّة، بعد أن قُطعت وأطيح بها وأَتَتْ عليها المواشى وأُحْرقت.

كان حارس بستان النخيل والزّيتون يُصغى إلى سيّده فاغرًا فاه وبؤبؤتا عينيه تَتَرَجْرَجَان: كانت تغيّرات الصّوت ورنّاتُه، هذا إن لم تكن الأفكار، تخلب لبّه وتفتن دماغَه الضيّق.

قال خلدون وهو يشعر بالوحدة:

- هدّموا ينابيع الماء وهشّموا مثابات الآبار وأطاحوا بأعمدة المرمر وأتلفوا البساتين وخرّبوا الغابات وأضرموا النيران فى الأرياف، كان أولئك الذين مَرّوا من قَبْلهم يتّبعون طُرُقًا طبيعيّة تتخلّل الآثار التى تَشْهد على حضارات عديدة، اندثر الرّومان، لكن بقيت رومة لا حراك بها، فَصِيحةً فى صمتها وفى تجرّدها. آه ثمّ

آه! تـرك الـهلالـيّون وراءهم وحـولهم أسـوأ قَـفْـر يمـكن لـلبـشـر أن يُوجدوه، بينما لم يُقدم البربرُ على إتلاف عدد من غابات الزّيتون إلاّ عندما انتاب الكاهنةَ الهلعُ والذّعر الهائل، لو لم يكن بنو هلال لكنّا استعدنا تاريخ الحِمْيَريّين كلّه ومسيرتهم بين قابس وجبل طارق، فالأبناء لا ينكرون آباءهم...

وسَكَتَ وهو متأمّل حالم.

بدأ ضربٌ من نَفَاذ الصّبر ينبعث فى خلدون بصفة غامضة، وبدأ يقوى تدريجيًا كما يطلع القمرُ، وهو الآن يعترف أنّ الكآبة والأسَفَ غلبا عليه، وأنّ أملَه قد خاب، ولكن لا يدرك ماذا سيُهاجِم ولا مَنْ سيُهَاجم، وبدأ نشاطه الجيّاش وحيويّته المتأجّجة يَنْبَعثان من جديد. على أىّ أمر سَيَصُبّ جهده وماذا سيكون الرّهان؟ كانت حيرتُه ترْشَح فى شكل سُخط وتهيّج. وكانت نيران الهلاليّين تَهِبُ نفْسَها، وهى سانِحَة.

– النّيران التى تَضْطرم على الأرض بِعَدَدُ النّجوم التى تتلألأ فى السّماء! وهى تُحيط ببِسْكرة خَطَرًا مُحْدقًا بها، هى عاصمتها، ومن هناك تُشعّ وتَسْطَع على جنوب الجَريدِ كلّه، والزّاب ونجاد هُدْنَة... فهى عُرضة لأىّ كان، يريد أن يبيعها أو يشتريها[٤٦]. فلْيُلقَ بها فى الميزان إذا آن الأوان يا لها من عصابات رهيبة، تُجيد القتالَ.

---

٤٦ – يقول ابن خلدون: " وشبّ نارَ هذه الفتنة عربُ أوْطانهم من الذواودة من رياح تنفيقًا لسوق الزّبون يمترون به أموالهم " (التّعريف، ص ٩٨).

مأدبة مُزْنى

كان بنو مُزْنى يكرهون المقام تحت الخيام، أمّا دَوَاوِدَةُ الزّاب فكانوا يفضّلون هذا الوقاءَ المتنقّل والمتحرّك على القُصور جميعها. وكانت علاقات هؤلاء بأولئك تتبدّل بحسب ما تجرى به الرّياح، فهم تارة جيرانهم وتارة مزاحموهم وتارة أخرى أصحابهم.

والدّواودة مُقاتلون رُحّل ورُعاة. وكان القوم الذين يخضعون لهم ويؤدّون لهم الجزية يسهرون على مزارع التّمر أو على حصاد الحبوب، أمّا بَنُو مزْنى فلم يكونوا رُعاة، ولا مزارعين، وإنّما هُم دبْلُوماسيّون وجُبَاةُ ضرائب يَجْبُونها سواء لفائدتهم أو لفائدة مولاهم، وهم لا يقاتلون أبدًا لمجرّد الرّغبة أو اللذّة، وتبقى علاقاتهم بالدّواودة فى مجال السّياسة حسّاسة وسريعة الانفعال، وهى إمّا اتّفاق متقلّب أو حسد ثابت قارّ.

وهم ينتمون إلى نفس العناصر العرقيّة من الأمّة الهلاليّة، حَمَلَتْهم موجة هائلة تدحرجت من الشرق إلى الغرب، وقد حلّوا فى هذه الثغور الصّحراويّة مع قسم من بنى لطيف.

وجدُّ الدواودة الشهير هو داود بن مرداس، وهو أب لسلالة ضخمة أنجبت زعماءً كبارًا، واستقروا ورتّبوا أمرهم فى الواحات والمراعى الموجودة فى الزيبان: الزّاب الظهراوى والزّاب الغربى، ونِجَاد الهُدْنَة، وأسّس جدود مُزْنى مملكة صغيرة حول بِسْكرة.

منذ ما يقلّ عن قرن أوكل مُليْكٌ قسنطينىّ إليهم السّهر على إدارة شئون المدينة ثمّ من بعد ذلك قصور وادى رهير، ففرضوا أنفسهم ولاة على واجهتيْن واتّصفوا بالغرور والجشع والمكْر والغدر والنّزُوق. وكانت لهم تحالفات قديمة قوّت طباعهم الجبليّة الوراثيّة وجعَلتْهم يفضّلون الكوخ المقفلَ والمنزل المشيّد والجدران السّميكة والمتينة والأبواب المُوصدة والمحروسة حراسة مشدّدة، امتاز طبعهم بالصّلف والوحشيّة والفظاظة وخلا من الجرأة والجسارة، وكانوا مغترّين يُعانون من أنّهم لا يُقدمون على إشباع غرائزهم ومن أنّهم لا يرضون شحًا أساسيًا كان عزيزًا إليهم، ولكنّه كان يمنعهم من أن يَعْظموا كثيرًا، كانت نبالتهم يفوح منها رائحة اكتساب حديث العهد، وكانت ثرواتُهم التى جمّعوها حديثًا تفرض نفسها دون جاه ولا هيبة.

عرف والد أحمد مزْنى من قبل كيف يرسّخ غلبته ويثبّت هيمنته على منطقة حكمه، وذلك بعد أن بقى مدّة طويلة مُقطَعًا خاضعًا

لسلطان تونس الحفصي، أمّا الابن فقد بسط نفوذه بالخارج على وجه الخصوص، وكانت كلّ بلاطات المغرب تعرف إيماءته المتملّقة وكأنّها طُلِيَت دُهنًا، والتى كانت تُعوزها العظمة الأبويّة ونطاقها الواسع، والعينان المبتسمتان اللّتان كانتا مُبْهمتين ومنغلقتين أكثر من أشدّ العيون ظلمة.

وكان مُزْنى يقطن فى بِسْكرة منزلاً رحبًا عديم الذّوق والأناقة، وأشبه ما يكون بالثكنة والقلعة، تحيط به حدائق وينابيع الماء، ويعيش مثله نساؤه وأطفاله وعبيده وقريباته من العجائز فى حُجُرات عارية ومظلمة عن قَصْد، باستثناء تلك التى كانت تُخصّص منها للضّيوف المُعْتادين أو العابرين، وتلك التى تُلقى فيها الخُطب وتعقد المجالس وتُقام الاحتفالات، كانت الهيئة التى أعدّت بها مشوّشة وغير منتظمة، وقد زخرت بأشياء متنافرة كلّها نشاز، وكانت تنمّ عن انعدام الخيال عند ربّ البيت وعن التدخّل الأخرق والسّخيف من كلّ عابر سبيل.

ذاك هو الرّجل الذى اختاره خلدون عندما زالت عنه الحظوة، وتلك هى الأماكن التى لازمها كثيرًا فى منفاه. كان يأخذ نصيبه من مآدب والى بسكرة، وكانت دُربته على أن يُدير شئون المدينة أضعف من دربته على إقامة مائدة دائمة لكافّة النّاس وولائِمَ سهلة المتناول، وقد نفعه ذلك دومًا؛ إذ البُطون إذا ما امتلأت أضحت النّفوس

طيّعة تنقاد إلى الإلماعات والإيعازت والطّلبات، وفى هذا الوقت يضفى حضور خلدون وأقواله اللّاذعة نكهة قويّة على ما يقدّم من أطعمة.

كانت لقاءاته بمزْنى تتّسم دومًا بشىء من الإهانة لُمزْنى واستياء منه دفِين؛ فقد كان ذاك لطيفًا وصاحب ملحة لاذعة، وكان يستْخِفّ بالشّريك وإن كان ماكرًا، فكان مزنى يعانى من قلّة الذّكاء، فتارة يكون ساذجًا وتارة مرتابًا، كما يشكو من عبارة مرتبكة ومن انعدام الجواب السّريع وقلّة البداهة، ومع ذلك فقد كان حريصًا على هذه الصّداقة الفَرَضيّة والوَهْميّة التى كانت تَرْبطه بمُعَذِّبه كما كان يحرص على مظاهرها الخارجيّة، وكأنّه يحرص على ضرب من تَقْدير يفخر به ويتباهى فى قصوره المجحود وغُرُوره.

وفى هذه اللّيلة ضمّت الدّفّةُ سفيريْن انتهى بهما المطاف هنالك: سفير أبى حمّو سلطان تلمسان وسيّد الطّائفة الوادية الذى يتحكّم فى مصير المناطق الغربيّة، وسفير تَكدّة، المدينة الخفيّة التى تكتنفُها الأسرارُ، عاصمة القبائل الصّنهاجيّة الملثّمة المنيعة فى قلب الصّحراء والتى لا يطالها أحدٌ. هل كان قدوم السّفيرين من أجل مزنى أم من أجل خَلدون؟

قال النّاسك المزيّف، وهو يسخر:

- هذا من عجائب زماننا! بقدر ما توجد مُدُنٌ يوجد مُلُوكٌ! كلّ حُويْكم أميرًا كان أم واليًا حاز النّفوذ والسّيادة على مكان مسوّر

بالحَجَر والأشواك الجافّة، يُضفِى على نفسه لقَب السلطان، وأنت يا مزْنى لماذا تأخّرت فى ذلك ولم تُقدم على ما فعله غيرُك، بَدَلَ أن تستمرّ فى ضَرْب من المُقطع الخاضع فى أوقات متقطّعة للبجاوىّ أو التّونسىّ أو التّلمسانىّ؟ عليك أن تعمل على أن يعترف مبعوثو الملوك والملوك، الذين تأويهم وتستضيفهم، بصفتك حاكمًا. اذْكرُ أنّ أباك دفع كلّ ضرائب الجهة إلى أبى عنان المرينىّ، مولاى فى الماضى وصديقى، وأطْعَم طابورًا من الجيش السّلطانى برجاله وخيْله وآواهم، واكتفى فى مقابل ذلك بتوْليته مسؤولاً إقليميًا صغيرًا!

قطّب أحمد مزنى وجهه قليلاً، وخاطب سفيرَ تِلِمْسَان قائلاً:

- يبشّر حكم أبى حَمّو بالحكمة بقدر ما يبشّر بعظمة حقيقيّة.

كان يشير بإيماءته المرتخية إلى موضع الضيوف، وكان خلدون جالسًا بالقرب من مبعوث الغرْب، وآنذاك همس المُضَيِّف فى أُذنه:

- يبدو لى أنّه حانق عليك أكثر ممّا هو حانق علىّ، فهل كسبتَ فى هذه المملكة الجديدة أو المجدّدة، أصدقاءَ يتّسمون باليقظة والدّراية والاطّلاع على كلّ ما يجرى؟

- لى أصدقاء دائمًا وفى كلّ مكان.

كانت تَعَاريجُ العُيون السّوداء الطّوال والتواء الشفّة التى ترتفع بفعل السّخرية تهيّج أعصاب والى بسكرة وتزعجه وتكبّده مشقّة

وجهدًا كلّهما قَلَقٌ فى البحث عن المغزى من لُغْز لا يُطيقه، أو فى إدراك حقيقة تُروِّعُه.

واصل المنفىّ حديثه قائلاً:

- والحال أنّ حَمُّو يهمّنى: بالنّسبة إلى الوقت الرّاهن هو السّلطان الوحيد الذى لم ألتحق بخدمته. أو لم يكن عزيزى أبو عبد اللّه المتوفّى تزوّج ابنتَه؟[٤٧]

- فلتعلم أنّك سيُرجى منك الذّهاب إليه، وهذا لم يعد يعنيك أو يهمّك كثيرًا، إذ إنّك عدلتَ باعتزالك عن كلّ مشروع وأقلعت عن كلّ مبادرة؛ ولذلك عُدمْتَ قدْر الرّجل المنتصر وقيمة الحليف النّافع.

عندما يهوى مُزْنى إلى القاع ويبلغ منتهى الكدر والانزعاج، ينتقم بالضّرب العنيف والكلام الجارح أو بالوقاحة والتصرّف الفظّ. وكان خلدون يهجم هُجومًا مضادًا فيردّ بفكاهة أو قهقهة أو مداعبة ظريفة، ويَنْتصرُ.

- أنا على القدْر الذى يليقُ بى لأتواضع وأتنازل فأزّين ولائمك، أيّها السّاذج!

- هل ستذهب إلى تلمسان؟

فتح خلد عينيْن كبيرتين، فى غاية الكبر. وقال بصوت رخيم:

- أيّها الصّديق الطيّب جدًا، أترانى أذهب دون ألم؟ لا أريد أن أكبّدك مثل هذه الفاجعة أو أن أحمّلك مثل هذا الشّجَن! لو كان

---

٤٧ - يبدو من كلام ابن خلدون عكس ذلك، اى أنّ السّلطان أبا عبد اللّه صاحب بجاية هو الذى زوّج أبا حمّو ابنتَه (التّعريف، ص ٩٨-٩٩ و ١٠٠).

يطيب لى أن أعاود شغفى بشئون البلاط لوَهَبْتَنى أنتَ نفسُك جيادَك السّريعة وانطلقتْ بى توًا تطوى الأرض طيًا، ليس إلاّ هذا.

- بل خذ ناقة رسول تكدّة البقْعاء.

نظر خلدون إلى السّفير الملثّم باهتمام، هذا أحد أبناء تسْكى العَرْجاء، وهى سليلةُ مَادْغيس وكان لها أزواج كثيرون، من البُتْر أو البَرَانِس وذلك حسب الأخبار التى تُنقل، كان البُطر بلغوا التّخوم المقفرة، وكانوا يمتطون حيوانات غريبة لم تُعرَف قبل ذلك، وهى الجمال، وقد هَيْمنوا على أُمّةِ زناتة، أمّا أصْل البَرَانِس الهائل فكان فى عداده فروع تعيش فى الجبال إضافة إلى تلك التى تعيش فى السّهوب...

جلس الملاحظ الدّقيق فى مكانه وأجال نظرة خاطفة فى الضيوف:

هرع الخدم السّود بسُكون، ووزّعوا بمهارة الأطعمة من الطّحين الملفوف والقدير الممزوج بالفواكه الجافّة واللّحوم المشوية الأعجميّة والشّهيّة ونبيذ النّخل ومصل اللّبن. كان لرسول البَيْداء وجهُ أبى الهول، خَفَض لِثَامَه وشرَع يُمزّق اللّحوم بيديه وينهشه بأسنانه، وقد تَمَلّكه جَشَعٌ شديد وعاوده نهمٌ ورِاثى. كان متوسّط القامة، نحيفًا تحت ردائه الأسود، وكانت تكسو جبينه وصدغيه وجفنيه بشرة ملساء مشدودة وكأنّها نقعت فى أشعّة الشمس، وكانت تظهر على ساعديه عضلاتٌ رشيقة خرجت من تحت عُدّة الأسلحة والثياب الفضفاضة والجلود المرصّعة.

وتكلّم الرّسول التّلمسانىّ بصوْت خافت وذكر الجيوش الكثيرة، والمساحات الممتدّة التى كانت لحلف بنى عبد الوادى، هذا الحزب العَتىّ الذى بفضله تأسّست سلطنة تلمسان المستقلّة وقامت فى وجْه المملكتين القديمتين بفاس وبجاية. ولعلّ حمّو كان يفكّر فى تكتّل يضمّ كبريات القبائل الرّحّل...

أجاب خلدون بصوت خافت:

- كلّها تُباعُ وتُشْترى...

حطّ مزنى عليه نظره، فلم يغضّ الطّرف:

- نحن نتكلّم فى أصول النّاس والأشياء، وكنت سأشرع فى الحديث عن أصل أسرتك.

قبض مزنى بأصابعه على قطعة لحم بتَشنّج، وقال بهدوء:

- أُشيعَتْ أقوالٌ لا نصيب لها من الصحّة، فلجأتُ إلى طالب ليدوّن الحقيقة على مائة ورقة من الرقّ.

- والمصادر والأصول المعتمدة؟ كلّ وثيقة تقتضيها.

- نعوّل على ذاكرتنا وما تشهد به الرّوايات المنقولة.

- من نَقَلَها، أنتم أم غيرُكم؟

ذكر خَلْد بخبث كيف أنّ النفوذ فى بسكرة كان فى الأصل لِبَنِى رُمّان، وهُم من سلالة صحراوية موغلة فى القِدَم.

- لمْ تكونوا آنذاك إلاّ فصيلة غريبة من بنى لطيف.

- هذا خطأ! نحن من بنى مازن.

- هذا خَلْط! وكان جدّكم يسمّى مزنى بن ديفل، لم يخطئ عالم الأنساب الهلالى الذى أستشهد به، وهو ما يُثبته فحصُ المواقعِ التى كنتم تسكنونها.. ثمّ بعد ذلك فعلتُم مثل كلّ الفصائل الأخرى من القبائل المتناثرة على الزّاب، الذين لمّا عُدموا من العدد والثروة والبأس ما يكفى ليعيشوا حياة ترحال توطّنوا فى الضيعات الموجودة أو حول أراضى المزارعة القديمة التّابعة لقَصَبة هزيلة بائسة بُنيت ببَقايا رومانيّة.

- معاذ اللّه من هذا المؤرّخ.

- وَلِمَ تكون خرجتَ من عرينِ أسد بدلاً من أن تكون خرجت من هذه الهضبة من الأرض التى تعمّرها اليرابيع وتُدعى حياس(؟)[٤٨] والتى لا تبْعُد من هنا؟ ولماذا تُخفى أنّه بقى حقدٌ بينكم وبين من بقوا على قيد الحياة من بنى رُمّان وقد تداولت بينكم الهزائم والانتصارات؛ - هذا وإنّى أهمل ذكر الجُثث؛ - إنّ الأكثر دهاء ومكرًا سينتصر حقًا علىٰ من هو الأكثر شجاعة وبسالة.

قاطعه مزنى قائلاً:

- حريٌ بك أن تؤلّف كتابًا، يبدو أنّك تملك من الوثائق والاستنتاجات الباهرة والمبتكرة ما يكفى لذلك وزيادة.

فجأة حلّ بالضّيف الجلال والوقار محل السخرية.

---

٤٨ - Hîas.

– كتاب؟ بل كُتُبٌ عديدة... علىّ أن أفرغ وأنذر نفسى لذلك. عمرى ثلاث وثلاثون سنة وأنا فى أوج نشاطى الجسمى والفكرى وعلى أشدّه لو أمكث فى منسكى وخلوتى فسيكون ذلك أمرًا مُنْجزًا! يحتاج المؤرّخ الذى وُهب حسّ النّقد والنّزاهة والصّدق إلى التجرّد الذى يزن الأمور ويكيلها، كما يحتاج إلى الإلهام والبصيرة وبُعْد النّظر، وهذه ثمرة الصّمت والهدوء والعزلة. سأكتب تاريخ المغرب، وقبائله، وشعوبه الأولى، وممالكه ودُوَله، وسأخصّ بالنّصيب الوافر بلاد بسكرة، الطّرفة الغضّة النديّة فى غشائها من الأراضى والصّخور المتكلّسة، بسكرة ينبوع ماء ينساب على حافّة بلاد الظمأ، غابة نخيل بهيّة، عاصمة اختيرت من بين عشرين قرية من قرى الزّاب!...

بعد هنيهة أضاف السّفير سائلاً:

– أو تجْزم أنّه فى وسْعك تَوْحيدُ هؤلاء وضَمَّهم تحت لواء واحد واستئلافهم إلى تلمسان.

لاح بريق فى عينى خلدون، وارتعش منخراه وكأنّهما منخرا جواد كان على أهبة الانطلاق؛ واعترضه حاجز، فَيَثِبُ دون تردّد.

– قل للسّلطان إنّ أسابيع قليلة تكفينى لذلك.

– سأرحل غدًا، وكانت المهمّة التى جئت من أجلها هى أن أصطحبك معى إليه...

– غدًا؟... نحن لا نملك إلاّ اللّحظة الرّاهنة.

الأخوة

فى الصّباح نبحت الكلابُ بشدّة.

كانت الجمال تجيب بكلّ ما أوتوا من قوّة بصوت أجشّ متبدّل. أحاطت الضجّة المُصمّة بالجدار الذى كانت تكتنفه الأشواك.

وفُتح باب بستان النّخيل والزّيتون، ودخل رجلٌ فهرع خلدون نحوه وهو يصرخ:

- يحيى!

- حرّ طليق

- وهذه الهوادج والمحامل... وهذه القافلة...

- أطفالك، أمّهم، أهلُك.

رجم الحارس الكلاب الشرسة، فاختفت وهى تعوى. ومرّت لحظة سكون وصمت كلّها تأثّر ومشاعر غامضة ومتباينة. وانزاحت ستائرُ الهوّدج ببطء. وتقدّمت قَمِيرَة وأبناؤها لِيُقبّلوا كتف مولاهم وقد اهتدوا إليه وَلَقُوه.

عبّر خلدون عن شيء من حنان تجاه الأولاد الثلاث الشّداد، وعن شيء من الحنق تجاه الوجه الكئيب، وجه الزّوجة التى أهْرَمْتها أيّامٌ لمْ تَرَ فيها إلّا الغمّ والكَرب. ونطق بعبارات التّرحيب المعهودة، وعبّر عن ابتهاجه بلقْياهم ثانية والشعور بأنّهم أصبحوا فى نهاية الأمر فى مأمن من صروف الدّهر؛ ثم قال كلمة مرحة ورقيقة بارك بها وَفَاءَ الأخ وأثْنى على تفانيه الذى بفضله التأم شملهم.

بيّن يحيى كيف أنّ سلطان بجاية غلبت لديه الشّهامة بعد أن هدأت ثائرتُه وخفّ غضبه، فأبى أن يعاقب خلدون على فراره وينتقم من أبرياء تُركوا عُرضة لعقابه وتشفّيه. ولم تزد الاستنطاقات التى تجشّمها يحيى الأمر توضيحًا ولا غموضًا. أمّا الجاسوسات اللائى دُسِسْن فى جوار قَميرَة فلم تَرَيْن منها إلا الدّموع أو عزّة نفْس حزينة أعيَتْهم وأوهنت حماسهم وحزمهم، ولمّا خرج يحيى من السّجن أُذن له بمغادرة المدينة مصطحبًا أسرة المنفىّ.

قال يحيى وهو يروى ما حدث:

- كنّا طوال الطّريق نظهر بمظهر البدو الرّحّل المتخلّفين عن القافلة. وها هنا سألت النّاس؛ إذ كنت لا أدرى أين أعثر عليك، ولم أبح مع ذلك إلاّ باسمك؛ إذ كنت أجهل تمامًا مشاريعك وحالتك الرّاهنة.

- نعْمَ ما فعلتَ، ذلك ما تقتضيه الحكمة، والآن لازم الصّمت مع كلّ النّاس ولا تنْبس ببنت شفة لأىّ كان، مهما علمتَ أو مهما صمّمنا وعقدْنا العزم على فعله. مُزْنى رجل مخادع ومنافق، وهذا تعرفه. ومع ذلك سأطلب منه حصانًا لك...

- لى أنا؟

- ... وسترحل بعد ساعة مع سفيرٍ من تلمسان.

كان صوته يتموّج واضحًا جليًا ومُنشرحًا يخرج من شفتين ساخرتين. تسمّر يحيى فى مكانه ذاهلاً، وصَمت، وكانت قَميرَة ترتعد فى الفجر البارد.

أمسك خلد أخاه من رقبته وسَحَبَه معه فى حركة ذهاب وإياب سريعة على المصطبة، كان يتحدّث بحزم وذهنٍ صاف، ويحُثّ أخاه مستعملا أدلّة مُقنعة لا تُردّ، كان يُهيّمن بكلّ ما أوتى مِن تفوّق على روح أخيه الذى كانَ متردّدًا ولكنّه كان طيّعًا.

- قال يحيى فى آخر الأمر وهو يهزّ رأسه:

- قل لى كلّ ما يجب علىّ أن أفعله بتلمسان أو بأماكن أخرى، ثمّ دعنى أنام هنيهةً.

- نَمْ.

وثب خلدون وامتطى أحد الجياد التى قدمت فى قافلة أسرته وانطلق نحو المدينة، ثمّ عاد منها على صَهْوَة جواد فحْل رائع، وأيقظ النّائم.

- كلّ الأمور على ما يُرام، وقد اتّفقنا على كلّ شىء، غمرت مزنى بهجة عارمة، وهو مقتنع أنّى أنا الذى سيروح، كان يعطينى كلّ ما فى إصطبلاته! أمّا أنت فستشقّ طريقَك عبر غابات النّخيل والحدائق، وسيكون حارسى دليلاً لك، وستلحق بالسّفير على دَرْب أومَاش؛ وفى تلمسان سيكون لك بادئ الأمر لقبُ المستشار الخاصّ ثمّ لقب الحاجب بعد ذلك.

- دومًا بصفة مؤقّتة وبالنّيابة؟

ابتسما معًا.

- أبو حمّو يفكّر مليًا فى شنّ حرب على بجاية،... ولعلّه يفكّر فى أكثر من ذلك، اخترتُ الدّور الذى يليق أن يكون لى والأمور على ما هى عليه، ألا وهو استئلاف القبائل وتجنيد العصابات. إنّ مجال عملى هو الزّيبَان والتّخوم الصّحراوية، أدّعى أنّه فى وُسعى أن أجنّد جميع الفيالق الرّحّل من قبائل رِيَاح، وأن أحرّكها بإشارة منّى لقُرْب عهْدى باستتْباعهم وملْك زمامهم، لكنّ حضورى ضرورىّ أيضًا فى بلاط حَمّو، ستكون أنت صِنْوِى هناك.

- فهمتُ.

كانت الكلاب الشّرسة قابعة خلف دغل من نباتات الصّمغ والورود وتكشّر عن أنيابها، وكانت تهرّ وهى تعضّ الغصون، وشقّت الهواء نقنقة ضفدع ساقية بنغمات متموّجة، وصاح طيرٌ يعيش فى شقوق جدران الأسوار صيحة ذعر لمّا رأى ثُعبانًا لامعًا ناعمًا كالحرير وهو ينتهى من الانسلاخ من غشائه؛ وبرهة سكن الثّعبان وقد أنهكه هذا الجهد البطىء، ثم انساب فجأة فى الأعشاب متلويًا تاركًا وراءه قشرته المصفرّة، تابع خلدون بعينيه حركات الحيوان الزّاحف الرّمزى، ولم يحرّك ساكنًا لقتله.

ألقى يحيى سؤالاً:

- ولكن مُزْنى؟...

سيُباغت ويندهش أنّى لا أبالى كثيرًا بثوب الأبّهة والبهرج هذا الذى يكسى هيكلاً خاويًا! هيّا انصرف يا يحيى، وسأقوم أنا بعمل جميل ومثير وأنا به مولع وشغوف، وهو عمل الوسيط بين القبائل الرّحّل التى تبيع أنفسَها وبين السّلاطين الذين يَبتاعُونها.

معركة أم صلاة

القَطْفَة...

هى النّجاد السّهبيّة العالية المرتفعة التى تكسوها نجيليّات[٤٩] عجفاء، من نباتات مُدغلة تزحف بين الأحجار، وهناك درب أبْلاه الدّهر يصْعد نحو الشّمال ويصل إلى مدينة الجزائر النّائية وإلى البحر على بُعْد يَفُوق عشرين فرسَخًا، وينعطف دربٌ ثان نحو الجنوب والصّحارى ما وراء الذّرى العارية واللّهوب المتحدّرة التى حَفَرَتْها الرّياحُ والرّمال.

كان خلدون يكتب وهو جالس على الأرض فى مُعَسكر تدوسه الخيل وينْعس فيه الخيّالة.

---

٤٩ - نباتات حبيّة وعلفيّة.

هو خلدون وقد كُسى غُبارًا عَلِقَ بِه بينما كان يجوب عشرات الثّنايا، وقد تَصلّب بسبب قطْع مراحل بسرعة وبفترات نوم مضطرب، صار نظره أكثر حدّةً لأنّه ترصّد بلا هوادة وليًا أو عدوًا يبرز بغتة، وعصابات رجال وَعَدتْه أحيانًا بالانضمام إليه ونَكَثُوا عهدهم، فانتظرهم سدى، أو كانوا قُلّبًا يرجعون على أعقابهم ويعودون إلى خيامهم، هذا إن لم ينضمّوا إلى فِرَق العدوّ(٥٠) فلم يَعُد ذاك النّديم والجليس الظريف والعالم اللّطيف والحاجب الفائق إلاّ فارسًا ليبيًا بصيرًا فطِنًا خبيرًا نَفُورًا، يقود زُمرًا من المرتزقة. اكتست يداه اللّيّنتان ووجهه الجميل لون النّحاس الأحمر.

قال هازئًا:

- يُمكن تمامًا أن يظنّ بى أنّى رسولٌ من تَكدّة.

ثمّ كتب:

" أُنبئكِ أيضًا بالأمر التّالى، يا أمّ أبنائى:

" نجحت مفاوضاتى لصالح تلمسان بصفة رائعة سواء مع البدو الرحّل أو مع سلطان تونس(٥١) وهو ما وضع رَهْن إشارتى قبائل

---

٥٠ - يقول ابن خلدون: " وَنَجَمَ النّفاقُ فى سائر أعْمال المغرب الأوسط، واختلفت أحْياء زُغْبَة على السّلطان (أبى حمّو)، وانتبذ الكثيرُ عنهُ إلى القفْر " (التّعريف، ص ١٣١).

٥١ - أى أبو إسحاق بن السّلطان ابى بكر بن أبى حفْص.

الجنوب كلّها، كلمة واحدة تدعو إلى الانضمام، تكفى لينهض الجنوب كلّه ويمشى ورائى!".

" إلاّ أنّ أحد أقرباء حمّو،[٥٢] أحد أبناء جهنّم، تفطّن إلى الأمر واكتشف فى جهة جبل تِيطَرى الكتائب المُنشقّة، وهو من بنى حُصَيْن المشوّشين والمُفسِدين[٥٣]، ولمّا أخبر أبو حمّو بذلك بذل ما فى وُسعه لقَمْعهم حالما يطأون بلاده، وأنا أوجد الآن بالموضع المعروف بالقَطْفَة قِبْلة تيطَرى، ومعى كتيبة فرسان قلائل أريد أن أقطع طريق أولئك فى انسحابهم إلى الصّحراء، فإن لم يكونوا يبتغون بلوغَ الصّحراء فستذهب جهودى أدراج الرّياح".

" وحمّو يمقت قريبه، هذا الغادر الذى يناوشنا ويكافحنا منذ زمن طال أكثر ممّا يجبُ وسَأُطْلعكِ على السّبب فى ذلك؛ منذ سنتين انهزم سلطان تلمسان، ولم تكن لى فى ذلك أيّة مسئوليّة. وبعد ذلك حاز هذا اللّعين نصيبَه من غنائم كانت مِن بيْنِها زوجة السّلطان المفضّلة، واقتسم عبيدُه المعتوقون النّساء الأخريات. (عندما نخوض حربًا فأيّة ضرورة تدعو إلى أن نجرّ فى أذيال الجيش الحريم بما فيه من إناث وأطفال وصناديق وخصْيان وعبيد، مع ما يسبّبه ذلك من ضيق وزحمة وتشويش وتعثّر!)".

---

٥٢ - أبو زيّان محمّد بن السّلطان أبى سعيد ابن عمّ السّلطان أبى حمّو.

٥٣ - لم يكن أبو زيّان من بنى حُصيْن، وإنّما أقام بينهم واشتملوا عليه (التّعريف، ص ١٣١).

"هل يرفرف الخير فوقكم فى بِسْكرة؟".

"وسّعوا من بناء المنزل بحسب حاجاتكم ورغباتكم، ليس من قيمة للثّروة وقد عادت، إلاّ بقدر ما تمدّنا به من نعيم ورفاهة ووفرة ولذّات عاجلة".

"هل أنّ المقدّم الشيخ أصيل مسِيد معلّمٌ حازمٌ مع الأطفال؟ كافئوه بسخاء".

"هل تدرون ماذا ينوى مُزنى فعله؟ إنّ ما يفعله لم يَعُدْ يهمّنى كثيرًا...".

"أخونا يحيى ينعم بالسّكينة وهو راضٍ كلّ الرّضا."

دسّ خلدون الرّسالة فى كيس صغير يُتّخذ للتّمائم، وسلّمها أحدَ فُرسانه.

- هيّا، وعجّل.

ولكن لمّا بلغ الرّسول عتبة منزل الطّين بعد أن قطع مراحل طويلة، أدركته بالبريد رسالة ثانية تحمل أخبارًا سيئة، وهى أنّه تمّ الاستيلاء بغتة على المعسْكر الذى كان فيه خلدون: سطا عليه بنو زُغبة وبنو عريف الذين بقوا مُوالين لسلطان بجاية، وفرّ أنصار تلمسان وتراجع خلدون إلى الزّاب ومعه عدد من الدّواودة الأوفياء. يضاف إلى ذلك أنّ شائعة أدهى من هذا الخبر وأمرّ تَسْرى فى الدّروب: هَجَمَ بنو حُصَيْن على حمّو، فَفَلّوهُ ورجع مُنْهزمًا إلى مدينته تلمسان.

أصغت قميرة إلى جميع هذه الأمور وكأنّها صدى لهمومها الخفيّة، ولم يكن يهمّها من كلّ ذلك إلاّ إمكانية رؤية زوجها من جديد سليمًا معافى؛ إذ إنّ الهزيمة رمَتْ به إلى جوار بِسْكرَة وأعادته إليها...

تمرّ الأيّام والشّهور، وتعود أقْمار إلى الظهور من جديد ، ويعود الهلال وكأنّه حرف النّون رُسم بخيط من الفضّة، هلال المسلمين وقد أهلّ على ليالى قميرة وأبناء خلدون، ليالى القلق والانزعاج؛ فقد أينعت التّمور مرارًا عديدة وتمّت هجرات الرّبيع ورجعات الخريف دون أن تردّه إليهم...

ركب المقدّم أصيل مسيد بغلته وقد ضاق صدره وعِيل صبرُه، فتوجّه إلى أورْلال حيث كان معسْكر زعيم الدّواودة شيخ العرب يعقوب بن على، الذى كان يحبّ خلدون حبًا خالصًا، وعاد المقدّم وهو أكثر دراية بالأمور من وزير.

كان الدّواودة يعلمون أنّ أوامر سرّيّة بلغت خلدون فى تخوم الزّاب وهو فى صميم الهزيمة، وطُلب منه أن يرتدّ ويغيّر وجهته بصفة مفاجئة، لكن الدّواودة كانوا يجهلون الوجهة التى قَصَدَها. وطوال الأعوام الأربعة التى تَلَت اليوم الذى نُصب فيه الكمين لخلدون بالقَطَفة كَثُر الثوّار والمتمرّدون والمنافسون حول الأمراء الذين كان بيَدهم الحكم، واستحوذ سلطان فاس المرينىّ على تَازَا واجتاح الأراضى التلمسانيّة واحتلّها وحاصر تلمسان، ولمّا هُزم أبو

حمّو وفرّ، اختبأ فى القَفْرِ مع حرمه وعبيده المعتوقين، ومُنِىَ الخطيب، الوزير القوىّ، بنكبة سببها غضب الخليفةِ الأندلسى، ثمّ صار صفىّ السّلطان المرينىّ المنتصر والمقرّب منه، ولكن خلدون؟... زعم أناس أنّه بلغ أسماعهم اجتيازه إلى أسبانيا...

استمع مزنى إلى المقدّم الذى أرسل إليه، ثمّ سلّمه ظرفًا ليحمله إلى قميرة، وفيه رسالة قديمة، كان الزّوج قد كتب فيها:

"إنّى بعيد جدًا منكم".

"وكدتُ أبتعدُ أكثر من ذلك."

"تؤثّر صداقة الودّ والإخلاص فى القَدَر حتّى يُساعد الصّديقَ؛ أمّا صداقة الغدر والخداع فلها علاقات تَوَاطُؤ خفيّةِ بالأحداث العدائيّة، قد دبّر الخطيبُ الحسود الخائن لغرناطة دسيسة لدى السّلطان المرينىّ وكان قد أطاح حديثًا بعرْش تلمسان.

"أمّا أنا فلمّا كنت أعلم ذلك وضقت ذرعًا بالبقاء فى خدمة لاعب بائس ، كنت قد عقدت العزم على أن أجتاز إلى الأندلس أو ألتحق بقشْتالة، وتعذّر علىّ ركوبُ البحْر بِهُنَيْن، فعدلتُ عن ذلك وغيّرت مشاريعى، وفى ذلك الوقت أوحِى إلى السّلطان المرينىّ أنّى كنت أحمل معى وديعة ثمينة حمّلنى إيّاها حَمّو إلى صاحب الأندلس".

"سواء كان ذلك أمرًا مختلَقًا أم حقيقيًا، فإنّى علِمْتُ مَنْ هَيَّأَ لى هذه الضّربة، فأُلقِى علىّ القبضُ وفُتّشْتُ، وقادونى بين يدى

السّلطان الفاسىّ الذى مكث بتِلِمْسَان، واستكْشَفَنى عن ذلك الخبَر، فأعْلمتّه بيَقينِه، وعنّفنى عن مفارقة دَارِهِم، فاعتذرت له معلّلاً ذلك بما كان من عمر بن عبد اللّه المسْتَبِدّ عليهم فى الوقت الذى اضطررتُ فيه إلى الفِرار من فاس. واستَخْبَرنى عن أمْر بِجَايَة، وأفْهَمَنى أنّه يرُوم تملّكها، فعَسَاه يحقّق بذلك حُلْمَ أجداده، فهوّنْتُ عليه السّبيل إلى ذلك، فسُرَّ به، ثمّ أطلقنى من الغَدِ.

" كَرِهْتُ أن أعرّض نفسى لعبوديّة جديدة.

" عقدت العزم على أن أتوَارى؛ لأنّ الأوقات كانت تبدو لى غير ملائمة لأىّ مشروع آخر غير ذلك، فألهِمْتُ أن أختار مكان العزلة ذاك وأن أحيا فيه حياة أكتسب منها الشهرة والعظمة والمجد، وأجد فيها سكينتى وهدوئى، حياة تليق بى.

«سأروح إلى زاوية أبى مدين فى بساتين العُبَّاد...»(٥٤)

---

٥٤ - يقول ابن خلدون: " فَعَمَدْتُ إلى رباط الشّيْخ الولىّ أبى مدْين، ونزلتُ بجواره مُؤْثِرًا للتخلّى والانقطاع للعلم لوْ تُرِكْتُ له " (التّعريف، ص ١٢٤).

زمان الدّعة والرّحمة

هناك سُور خارجى، وبناية ثُبّتت فيها ثلاثمائة حلقة من نُحَاس ومن برنْز، تُعقل بها الخُيول والبِغال التى يمتطيها أصحاب الرّباط وأكابر المؤمنين فى مواسم الزّيارة الكبرى التى تُقام لتقديم الأضاحى أو للتبرّك بالأولياء الصّالحين.

توقّف فارسٌ أمام السُّور.

خرج منذ حين من باب الجِياد بِتِلِمْسَان، واجتاز مقابر مُتَرامِيَة الأطْراف، وصلّى فى مسْجد يأوى ضريحَ أحد مشاهير تِلِمْسان وهو محمّد عامر، ثمّ صلّى أمام قبر الولىّ الطيّار، الذى كان يَطيرُ بمُجرّد إرادته وهمّته، فَيَنْتَقِل فى لحظة على سَجّادته من موْضع إلى آخر.

تسلّق طريقًا صاعدة وَعِرة، فرأى أشجار الصبّار الزرقاء وهى شاهرة حرابًا شائكة، كانت شفرات التّين الشّوكىّ تنْثُر فى النّسيم

غبارًا من الأشواك، وكانت أشجار الخَرّوب تلتفّ بأوراق مستديرة كأنّها من معدن داكن.

استقبله الماء والورد والنّداوة اللّيّنة النّاعمة فى العُبَّاد، هذه القرية التى كانت تضمّ ديارًا تنعم بالهناء والسّعادة.

وفى قمّة القرية المُتدرِّجة، أدرك الغاية من رحلته، وهى الرّباط الشهير، رباط أبى مديَن، فاجتاز الباب المطلىّ والمنحوت الذى فُتح أمامه على مصْراعيه، ثمّ اجتاز بهوًا كُسِى فُسيْفساء بيْضاء، وتوضّأ عند البئر العَتيقة، وسجد تحت قبّة مظلمة فُتحت فيها كوّات، أمام الصندوق من اللّوح الثّمين الذى كان يغطّى ضريح الولىّ أبى مدين...

والآن...

يَسْكُن خلدون قصْرًا صغيرًا مزيّنًا، فى ظلّ القبّة المُبَاركة وعن مَرْمى حَجَر من الرّباط، وكان هذا القصر يستقبل فى قاعاته العشرة وفى صُحُنه المُزهرة الثلاثة كبارَ الزّائرين والأشراف، وكلّ من يأتى ليَشْهد الزّيارةَ السّنويّة.

ذلك أنّ النّاس يعطون الزّكاة مرّة فى السّنة، فيحتشدون للغرض، وتُعقل فى حلقات النّحاس والبرنز المطايا النّبيلة، أمّا الحمير والجمال فتجول بين الأماكن الواقية والخيام فى مدينة كاملة تُقامُ لِوَقْت ثمّ تُرفع.

كان النّاس يرَوْن فى خلدون نُورًا سماويًا كوْكبًا مُضيئًا ونجْمًا ساطعًا يمتاز عن كلّ الذين اعْتادوا ارتيادَ هذا الموقع المتألّق والمُشرِق، وهُم يُشبهون شموعًا لامعة تتّقد تعَبّدًا وورَعًا، كان له الحُكم والسّيادة، وكان النّاس يبادلونه الولاء والإجلال، ويستشيرونه

فى أمورهم ويلتمِسُون آراءه، كان يدرّس بالمسجد الذى كان لا يكاد يَتّسِع لكلّ المستمعين إليه، كانت حُجرات الرّباط الضيّقة تعجّ بالمريدين حديثى العهّد، وكان عدد الطّلاّب الذين يأتون من قرية العُبّاد لا يقلّ عن عدد الطلاّب القادمين من العاصمة المجاورة، كانت طريقة خلدون الباهرة وحماسته الفخورة المؤثّرة التى لم يُعرف لها مثيلٌ من قبلُ، تحثّان نفوس الصّفوة من الشبّان اليافعين على التّنافس، الشبّان الذين يبتغون النّهلَ من العبارة الأكثر فصاحة والكلام الأكثر ثراء فى ذلك الوقت.

يتّجه العالِمِ الواعِظ كلّ يوم نحو البِناية العتيقة، التى أمَر السّلطان الفاسىّ بتوسيعها وتجْميلها، كان خزف السّقيفة المُزخْرَف يُشبه نشيدًا من الألْوان، فكان لا يقلّ روعة ورونقًا عن خزف مَزَارَات غَرْنَاطة وفَاس. يرتقى خلدون درجات السلّم وقد تَبِعَه المُعجبون به وكلّهم إجلال واحترام، ويدفعُ البابَ المتّخذ من خشب الأرْز، وهو باب ضَخْم لامع ومُعطّر، كُسىَ نقائش ثمينة من النّحاس، وهو ذو معجزة؛ إذ إنّه أُلْقى به فى اليَمّ على السّاحل الأندلسى ورَمَى به البحرُ بهذا الموضع من المغرب.

تعجّ قاعات الصّلاة والدّروس والأجْنحة الخَمْس بوُجُوه مُتشوّقة وشاحبة تتَجَمّع فى الرّوَاق وتتَزَاحمُ حوْل الأعْمدة، ولا يبْقى إلاّ المِحْراب فارغًا، وفيه يأخذ الواعظ مكانه.

عندما يتحدّث خلدون إلى المقرّبين منه ويُحاوِرُهم، يُفضّل الجلوس داخل الرّباط، هذا الرّباط الذى أصبح الجامعَة الشهيرة بالملكة، كان يُحبّ فيه المقاعدَ فى ظلّ الشّرفات التى تُطلّ عليها

حُجيْرات الشبّان اليافعين، أولئك الذين نَذَرُوا حياتَهم للدّروس وحدها، هؤلاء الفتيان الذين يبْتَغُون المُكوث بالخلوة باعتباره أمرًا نافعًا، وهى الكوّة المسدودة حيث لا يستطيع المرء أن يُقيم إلاّ إذا جلس القرفصاء، وحيث يقدر عدد من الشبّان على البقاء متصلّبين ومتألّمين ومُثابرين على ذلك أيّامًا كثيرة، كان يَعرف كلّ الأرْوقة والممرّات المكوّعة والسّلالم المُنعطفة التى تُفضى إلى مكتبة فريدة، كانت تعجّ بالصناديق ذات الزّخارف الحديديّة القديمة أو المزوّقة بكيفيّة رائعة وعجيبة، فى فُرُجات الجُدران السّميكة وتحْت غطاء من الحرير ذى اللّون الباهت، وتحتوى على لفائف من الرّقّ ومخطوطات مُسَفّرة بالجلود الفلاليّة أو القرطبيّة المرصّعة والمذهّبة، والمطوية على ثلاث ثنايا.

فى هذا الجوّ حَدَث لخلدون أمرٌ عجيب أو خارق، وتكرّر عليه ولم يَشَأ هو أن ينفكّ عنه، فقد انقطعت كلّ العلائق الدّنْيويّة الأخرى، وارتدّت الأعمال والواجبات فى حياته السّابقة إلى الوراء وبَعُدت عنه كثيرًا حتّى اختلطت بعضها ببعض وفَقَدَتْ مغْزاها. استولت عليه معانى التّهليل والتّمْجيد الشّديديْن، فكان يفكّر ويتكلّم وهو يُصْغى إلى نفسه وكأنّه يُصغى إلى أصوات نَبَويّة. وأخذه وجْدٌ ووَرَع روحانى يَرْفَعَانه ويُبْقيانه مُحلّقًا يَسْمو عن العلائق الجسديّة، وقد تجرّد من كلّ المُيُول والأهْواء البَشريّة وتخلّص ممّا كان يَتُوق إليه أو ينْفر منه ويكرهه، وشرَع يَنْهَلَ من الحقائق الصّوفيّة.

هكذا انْتَابه ضربٌ من نِسْيانِ الكُلّ، ما عدا الإيمان فى الرّوح والعِلم فى المادّة.

كان حالُ السّيادة حالَ الرّحمة أيضًا.

القوّة على العودْ

علا صوت الكلاب بالنّباح العنيف، عندما شَعرَت باقتراب فارس كان يَسِير حِذْو السّور المشوّك؛ وسُرعان ما انقلب هيجانُها جذَلاً وحُبورًا، ثمّ انبطحت على الأرض من الفرح وأطلقت صوتًا يُشبه الأنين.

عرف الأهلُ نِداءَ خلدون، فانطلقت صيحاتٌ تُعبّر عن المفاجأة والدّهشة، ودخل خلدون وكأنّه يحمِله شبابٌ كان قد استَعَاده وهو الآن يَسمُو به.

- مهْلاً، سأرْوي لكُم ما حَدَث، سأروي لكم...

قدِم الأصحابُ المخلصون لاستقباله ورؤيته، واستمعوا إلى قصّة حيّة تفاعلت فيها ذاكرته وخياله.

ماذا كانت دوافعه فى اختيار رباط أبى مدين؟ لو أنّه اختار مكانًا أبعد من ذلك لكان بالإمكان أن يَعْترض السّلطان على ابْتعاده، ثمّ إنّه بقى قريبًا من الأخبار التى كان يَحْيى يُزوّده بها، وقد أُبقيَت له وظائفُه، ثمّ أنّ الولىّ الصّالح بدا له أقربَ إليه من أىّ ولىّ آخر، ذلك أنّه وُلِدَ باشبيلية، وتعلّم بِفَاس وتِلِمْسَان، ودرّس بِبِجَايَة ثمّ عاد ومات على ضفاف وادى إيسر، وهو الآن يرْقد فى الخُضَر بين أضرحة العُبّاد الطّاهرة المقدّسة.

حدث كلّ ما كان ينْبغى أن يَحدُث.

استدعى السّلطانُ إلى جواره هذا الكائنَ الباهر والفريد، سَيّد العلم والكلمة، ليكرّمه ويُبجّله. كانا يقضّيان الأوقات المديدة فى الحديث عن الوقائع التى كانت تحدُث: توفّى بِطْرُه الطّاغية، قَتَله أحد خُصومه؛ كما تحالف خليفة غَرْنَاطة والسّلطان المرينىّ؛ تتالَتْ على الخطيب النّقمة تلو الأخرى ثمّ اختفى.

- اعلموا أنّ المرينىّ عبد العزيز رجانى أن أفعل ما كنتُ قد فعلتُه لحمّو، أى أن أسْتَأْلِفَ البَدْو الرّحّل وأسْتَنْهِضَهُم له...

الرّياط، القدْوة الحسَنة، الجَذْوة المشتعلة، التصوّف الكامل الذى كان يقترب من الغبْطة الإلهيّة، المُثابرة على الحركات والأفعال التى لا عائق لها ولا غرض منها، هل كان ذلك كلّه يكْفى نَفْسًا مسحورة، مفْتُونة بطمُوحها الفعّال، هذه النّفس التى وإن كانت تهدأ أحيانًا

فما كانت تُشفى أبدًا! فألقى بنفسه ثانية على الدّروب، راجعًا إلى الآثار التى خلّفها وراءه، وانْسَلَخ بالكلّيّة من شخصيّته الدّينيّة، تمامًا كما كان ينْبُذ طبعَه الذى كان عليه ويتطهّرُ منه.

إلاّ أنّ الصّيف كان فى أوْجِه وعلى أشدّه وكان يلتهم البيْداء، فاضطرّه إلى التريّث، ذلك أنّ المخيّمات المهْجورَةَ لن يعود إليها أهلها من القبائل إلاّ فى الخريف.

- فى الأثناء أقدّر أنّ أبا حَمُّو، هذا الرّجل الذى لا تُرْجى منه فائدة، سيستغلّ الهجرة ليَجْتاز الزّاب ويضُمّ إليه عددًا من النّاقمين؛ لذلك سمحتُ أثناء سيْرى لجيوش عبد العزيز بأن يسْلبوه متاعَه وكنوزَه، سنُحْسن استعمالَها أكثر منه.

قال ذلك دون حيَاء، كالنّاسك الذى رَمَى بخِرْقَته عَرْضَ الحائط، وكالمُغامر الذى يمْتطى سَرجَه ثانية ويُهمز جواده الذى تأخّر عن الرّكْب .

مُزنى

كان الحلاّق المتجوّل يُمسك بين يديْه رأسَ خلدون الذى نفذ صبره وبدأ يتململ، وهمس الحلاّق فى أذنه:

- حذار من مُزْنى!

وقال له المقدّم مختار بتؤدة، قبل أن يعود إلى قرية مسِيد التى تظلّها واحةُ النّخيل:

- حذار من أحمد مُزْنى.

كما كرّرت الزّوجةُ قولَها بلا كلل ولا ملل، بعد أن حذّرها العبيدُ ونبّهتها مشاعرُها الدّفينة:

- احْتَرِسْ.

بدأ اللّيل يسْرى زاحفًا من كلّ آفاق الأرض والسّماء، وتوجّهت قطْعان الماشية لتعود إلى الحظيرة، وقد دعاها إلى مربَضها الدّخان

الأزرق الصّاعد من مواقد النّار، وبرز طيْف أنْثى وقد التفّ بِجُوخ من الحرير وتزيّن بالوَرْد والزّعْفران، وبدا وهو يرقُص فوق حصباء النّهر وقد اصطبغت بلون العقيق الأحمر؛ هى بِنْتُ شِير، بَغيّة الوادى واللّيل، العاهرة التى تتّجه نحو عُشّاقها الذين لا يُرَوْن. واقتربتْ من حقْل خلدون، وعلقت بالضفّة المنْجرفة وتشبّثت بها ورفعت بدنها فأطلّت بصَدرها الطّويل وقد تليّن وتطرّى، انحنى خلد وقد خطر بباله أنّ هذه المخلوقة ذات الأطوار الغريبة تبْغى منه عِناقًا، لكنّها اكتفَتْ بأن هَمَسَت فى أذنه:

- حَذَار من النّسر الصّغير.

كَزّ النّصيرُ على فكّيْه، وغاص فى فكره واستغرق فى تأمّله، وهو يستعرض فى ذهنه الطّريق التى كان قد قَطَعَها.

تلِمْسَان، رباط أبى مدين حيث تحرّر من كلّ همّ كان يشغل باله، وتحوّل إلى كائن روحانىّ، ثمّ رحيله... وبكاء الطلبة... وعويلهم لفِرَاقه... وملاطفة السّلطان إيّاه وإطراؤه عليه، والآن مُنح النّفوذ المطلق، سيكون عن قريب سيّدًا على جيوش لا تُقاوَم ولا تُهزم، وعاد من جديد رجلَ المعركة، ورَجَعَت العبقريّة العسكريّة التى كانت لبعض أجداده، لتظهر عنده.

وها هو منذئذ يُقيم ببِسْكرة للمرّة الثانية، وفى الأثناء قاد معارك كثيرة، طلب منه عدد من السّلاطين أن يذهب ويقمَع ثوراتٍ

عديدةً ويُعاقب أصحابَها، وما أن عاد من المعارك ولقى من جديد كلّ الأشياء فى مدينته المفضّلة والسّحر الرّيفى الذى كان يكتنف منزله وقد تمّ توسيعه، حتّى انْتَابه شعور شديد بالشّؤم الذى تنذر به تنبيهات الأصحاب والأهل وتحذيراتهم ، فداخله توجّس وخوف من خطر مُحدق حقيقىّ.

كان يرى حسب مَنطقه أنّ استياء والى بِسْكرة وقلقه من شهرته الحديثة والمتنامية فى الصّحراء أمرٌ طبيعىّ إلى حدّ ما، وكذلك استياؤه من صداقته الحارّة لزعيم الدّواودة الجبّار، ومن نفوذه الذى تدعّمه الوقائع والخرافات، والذى يسْرى فى عامّة النّاس وخاصّتهم بالتّخوم الصّحراويّة وبالمدينة ذاتها، لكنّه ما كان يسْتطيع أن يَتَنَبّأ بالشكل المعيّن الذى سيُعبّر به مُزْنِى عمّا يكنّ له من عِداء دَفِين.

هل سيعترف فى قرارة نفسه بما يجول فى خاطر هذه القوى الكامنة فى أطراف البلاد وتخومها، فى الحياة التى يحْياها باعتباره قائد قبائل، عندما يجوب الفيافى الشّاسعة، ويستوحى من عشرات الأمثلة والنّماذج السّابقة، والتى يمتاز عنها هو بالذّات ويتفوّق، ثمّ يعدو على متْن جواده ويعُود إلى موضعه المفضّل.

– إنّ الجهل ليُفْسِد الأحكامَ ويُبطلها! والإنذار يكتسب من القيمة ويكون نافعًا بقدر ما تتوفّر فيه المعرفة والدّراية اللّتان يستند إليهما، ومُزْنِى مدِين لى بأن يهابنى أكثر ممّا أهابه، يظلّ رجالى من البدو الرّحّل العنصرَ الحاسم فى الميزان الذى به أُرجّح كفّة على

أخرى وأُزيح هذا الشّخص المُزْعج، لو جمّعتُهم ووحّدت بينهم وحشدتُهُم لفائدتى... وأنا أهوى بِسْكرَة كثيرًا، بسكرة التى تُبادلنى الحبَّ وهى لا تحبّ مُزْنى...

فى شهر سبتمبر نضجت التّمور.

كانت أعْذاق التّمر تُشبه الذّهبَ والعنبر والأرجوان والبرنز وهى تتدلّى بين جرائد النّخل التى احترقت بالصّيف.

كانت الزّرَازير تتجوّل وكان الرّجال يتفسّحون وقد امتلأت البُطون.

نزلت القوافل من جديد من النّجاد العالية، لكنّ الحياة بقيت تدبّ فى الدروب بما يتبادله النّاس من آراء بطيئة ومعتادة.، تتشتّت المخيّمات وتتبدّد أو تتجمّع وتُلاقى من جديد وجهَ القفْر المترامى الأطراف.

وهذا هو الفصل الملائم، بما لا يتناهى، لكلّ المساعى والمحاولات.

- وَصَلَ بريدٌ؟...

- ... أوْفَده مُزنى على جناح السّرعة، ولكنّه قادم من موضع أبعد من ذلك.

استدعى السّلطان خلدون للرّجوع توًا إلى بلاط تِلِمْسان.

- غريب... ومع ذلك أظنّ أنّى فهمتُ حقيقة ما فى الأمر، ولن أذهب بمفردى... أيتها المرأة، أيّها الأولاد، أيّها العبيد جهّزوا كلّ الأشياء بعناية وعجلة، لا نعرف على الحقيقة أين نحن ذاهبون، وما إذا كنّا سنرجع يوما إلى هنا.(٥٥)

لمْ يحنْ بعْدُ الأوانُ ليكون خلدون أميرًا على بِسْكرة وشيْخَ العَرَب وسُلطان البَدْوِ الرُّحّلِ، ولكن ما تزال أصْقاع أخرى من الأرض تستدعى فيها مظاهرُ السّلطة الجذّابة والمُغرية والزّائلة الرّجالَ وتهبُ نفسَها لمن يكون منهم الأكثر ثباتًا فى طمُوحه وإصرارًا عليه!

- أيا مُخْتار، المُقدّم ومُعلّم أبنائى، أقِمْ مِن الآن بمَنْزلى وتَغَذّ من محاصيل بستان النّخل والزّيتون وخَيْراته، لو أرجعنى القدرُ إلى هنا فأحْسِن استقبالى واكْرِمْ وِفادَتى، وإنّى أدعو اللّه أن يكون الكلابُ والحارسُ مُخْلصِين وأن يكون الرّخاء دائمًا بقدر ما كنتَ أنت حكيمًا.

---

٥٥ - يقول ابن خلدون: "لمْ أشعر إلاّ وقد حَدثَت المُنافسةُ منه (أحمد بن يوسف بن مزْنى) فى استتباع العرب، ووَغَرَ صدرُه، وصدّق فىّ ظنونَه وتوهّماته، وطاوع الوُشاة فيما يُوردون على سمْعه من التقوّل والاختلاق، وجاش صدرُه بذلك؛ فكتَبَ إلى وَنْزَمَار بن عريف ولىّ السّلطان وصاحب شواره، يتنفّس الصّعداء من ذلك، فأنهاه إلى السّلطان، فاستدعانى لوقته، وارتحلْتُ من بسكرة بالأهل والولد فى يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين متوجّهًا إلى السّلطان" (التّعريف، ص ٢١٦).

- مولاى، أنْتَ الموجة النّافعة فى نهر يسيل بسرعة، ولستُ أنا إلاّ نخلة عروقها ثابتة فى الأرض... وستُطْلِعَكَ الأيّام على أنّ مُزْنى كان قد كتب إلى وزير السّلطان المرينىّ يشكو له مناوراتك ويتذمّر منك.

انتقام السلطان

منذ قُرون وأُمّة البَدْو الرّحّل تَنْتَجع، وتصعد وتنزل فى رحيلها سالكة طريقًا واحدًا، طريقًا رُومانيًا يتعرّج متّبعًا مُنعطفات أقْدم الدّرُوب.

يعْلُو هذه الدّروب غبارٌ يثبت ويتبدّل تحت أقدام هذا القَدْر الهائل من البَشَر الذين يجُوبون هذه الأصقاع ويتنقّلون ابتداء من بسْكرة ومن الزّيبَان وبين المجرى الخطّى أو المتدفّق لوادى جدّى وبين السّلسلة الجبليّة التى تنْتصِب فوقها رعناتٌ ناتئة، ثمّ تُقلع متّجهة نحو الشّمال، وتجتاز ممرّات جبال رَاشِد وتعبر سَهْل الشّلف المرتفع إلى أن تبلغ مدينتى تِيهَرْت.

وهى مناطق فيها مرتفعات وغابات أرز، وهى فضاءات فيها سُهوب حيث الشّمس تلسع والرّيح تفلع وتُشقّق جلود الآدميّين،

ومُنحدرات شديدة وسُيُول مُنخفِضة، وأنْهار تتدفّق بلا انقطاع، وما أن ينتهى الرّبيع هناك حتّى يكفى أن توجد كتلة من الصّوّان أو جذر أو باقة من مسطكا البطميّة حتّى يتحوّل الجدول عن مجراه ويُحْدث بِرَكًا متدرّجة من الماء الرّاكد.

وهو الموضع الأمْثل الذى تَصْطاف فيه عشائر متنقّلة ومَواش ضخمة، وما أن تهبّ أوّلُ شَمْأل حتّى يفرّ أهل الصّحراء من هذه البلاد حيث:

" البرد قارص لا يُطاق، عندما تظهر الشّمس من وراء الضّباب تبدو وكأنّها تنبعث من تحت الأرض".

تنزل هذه العشائر متّبعة الطّريق العريق والمُوغِل فى القدم، وهو طريق أمّة عظيمة وهم زناتة البرابرة الذين كان خلدون يحلُم بكتابة تاريخهم.

كان يقول عنهم:

- هذا الجيل فى المغرب قديم العهْد، معروف الأثر والعَيْن، وهم لهذا العهْد آخذون من شعائر العرب فى سُكْنَى الخيام واتّخاذ الإبِل وركوب الخيْل، والتغلّب فى الأرض وإيلاف الرّحلتيْن، وتَخَطّف النّاس بالعمران والإباية عن الانْقِياد للنّصْفة.

كان يحلو له أن يتصوّر حشودهم الكثيرة ويصفَها، عندما يستولون على السّهوب ويغطّون المراعى بعدد مُذهل من هذه

الحيوانات الحَدْباء التى قدمت معهم عند أفُول رُومَة الإفريقية وقبل فجر الإسلام، كانت فصائل يهودية تعيش بينهم، وهى عشائر حافظت على فُرُوقها العرقيّة؛ ومن إحداها كان قد انبثق ذاك الوميض اللامع: الكاهنة.

وكم من مرّة جاب خلدون هذا الطّريق الذى يسلكه اليومَ مُهاجرًا مع عائلته! تنبعث اليوم أشباح الكائنات والأحداث فى كلّ محطّة، عند كلّ ملتقى دروب تنطلق نحو الآبار ومواضع يلتقى فيها النّاس أو تُنْصَب فيها الكمائنُ أو تُشنّ فيها المعارك، كان قد جاب هذه البقاع على مَتْن جَوَاده سواء كانت عدّته من الرّجال يسيرة أو هائلة، وكان يُحيط به حرّاس عُتاة من القُوم، وقد أُغْمر بالهدايا الملوكيّة. والآن لا تتجاوز جماعته نفرًا من دواب الرّكوب أو الحَمْل، وفُرسان قلائل من أصحاب الدّواودة، ومثلهم من المُشاة المُرْتزقة.

وهو مع ذلك يطمح إلى بلوغ فاس، مثلما كان الأمر فيما مضى، وعقد العزْمَ على ذلك، وهو ما يتلاءم تمامًا مع جُوده وإسْرافه المعتادين، فلم يأل جهدًا فى ذلك ولم يُثن عزمَه بُعْدُ المسافة.

وصل إلى موضع عرفه الفُرسانُ، ففيه قَبَض الجيشُ المرينى على أَبِى حَمُّو على غرّة، وهزم جنودَه ونهب كنوزَه، وتمّ ذلك وِفْقَ خطّة كان خلدون قد أحْكمها وتوجيهات كان قد أسْداها للجانب المرينىّ...

إنّه فجرٌ مريبٌ ينذر بالأذى والشرّ أعْقَبَ ليْلَ الصّحراء البارد. كانت القافلة تسير ببطء شديد وكأنّه حلّ بها الخمول والفتور، وفجأة ظهرت ندائف من الضّبَاب دفعتْ بها ريح غريبة وانفصلت عن الأفق وتجمّعت وانهالت كلّها على القافلة المكتئبة...

- خلد، خلدون،... غَاق.

أهي صَيْحات تجمّع وانضمام، أم نعيقُ غرْبان؟ وهذا الاسم المشهور شهرة طبّقت الآفاق، حتّى أنّ الأسنان تعضّه والأفواه تتْفُلُه.

أهي صيْحات تجمّع وانضمام؟ لا، إنّها صيْحاتُ غارة!

التَأمَتْ القِطَعُ من الضّباب وسَكَنت بعد أن انقضّت على القافلة والتفّت حولها.

ها أنّ السّلطان حَمّو قد انْتَقَم.

المؤرّخ

تاوغزوت

خلّفت هيْمنةُ الرّوم فى جنوب مَدينَتَىْ تِيهرْت آثارًا، وتركت إمبراطوريّةُ زناتة العتيقة قبُورا، كانت توجد هناك آلافُ الأضرحة، ومنها أضْرِحَةٌ عديدة ترْقَى إلى عصر كان فيه رجالُ الغابات والكهُوف يصطادون بالحِراب وفئوس الصوّان، كانت المدافن الضّخمة والنّوَاوِيس تحت سطح الأرض جاثمَةً على قِمَم الكُتل الهَرميّة المتدرّجة فى شكل طوابق، كانت حُجُراتها الجنائزيّة تحفظ جُثثَ الموْتى وزينتَهم وأثاثهم، جُثث هؤلاء المُلوك البرابرة الأشدّاء، الذين ساهموا فى عظمة الزّنَاتة، سواء كانوا خرافيّين أو كانوا حقيقيّين.

كانت تِيهرْت العتيقة عاصمتهم فيما قبل، مثل تلمسان، وقد حُصّنت من الجهة العليا من مَجْرى المِينَا.

هناك دَرْب وعِرٌ يؤدّى إلى فرَنْدة وتَاوُغْزُوت، وهناك ثغرة مُنعرجة بين شِعاب صخْريّة وأخْيَاس وصُنُوّف وهى ممرٌّ يجتاز منه الخنازير والسّباع ويُفضى إلى أسفل شَعَفة أو رعْن زادت الانجرافات من وعُورته ومناعتِه. ويوجد فى قمّة الصّخرة موضعٌ عامر بالبَشر، وهو نوع من القصبة نِصفها خَرِب: إنّها قلعة بنى سلَامَة.

كانت قبلَ بضع سنوات قلعةً شامخة، منيعة تمامًا أو تكاد، وكانت إقامةَ شيخ قبيلة بنى عريف المفضّلة، إلاّ أنّ هذا الأمير كان له باعٌ كبير فى الصّراعات الحربيّة والسّياسيّة بالمغرب، فما كان إلاّ أنْ صَبّ عليه السّلطان التّلمسانىّ أبو حمُّو جَامَ غضَبه وانتقم منه، وبعد أن دُكّت القصبة ودُمّرت ثبت ما بقى منها أثرًا شامخًا فخورًا، صامدًا أمام هجمات الرّيح العالية والعاتية.

وبقيت فارغة مدّة طويلة، لا يرْتادُها إلاّ طيور اللّيْل والكَوَاسر وبنو آوى تأتى إليها لتَنْهَب وتختطف، أمّا الأسُود الهائمة فكانت تتبع القِمَم وتأوى إليها لتشحذ مخالبَها على مصاريع الأبواب المقْتلعة، وها أنّ هناك نيرانًا وسُرُجًا تلمع فى الكوَى وشقوق الجدران، وترتفع أصوات، وتظهر من خلال الفَتحات الخرية كائنات حيّة.

كان فى وُسْع طُيور الغاب أن ترى المشهد التّالى: فى غرفة بقيت سليمة تقريبًا، يكتنفها ظلّ وتملؤها رطوبة ويخيّم عليها سكون وخُشوع، كان رجل يجلس القرفصاء، على حصير من القصب، تُحيط به أوراقٌ مبعثرة وأقلام جديدة أو مستعملَة.

كان الرّجل يَخُطّ عُنوانًا بالزّخرفة ويرْسُم حركات الإعراب والنّقاط:

"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السّلطان الأكبر"

تسرّبت صيْحة غُراب من صَدْع الجِدار

غَاقْ...

تبسّم خلدون بمرارة هازئة، هو الآن شاحبُ الوَجْه أكثر من طالب بالرّباط، وقد صغُر ورقّ، وهو يرتعد بين الفينة والأخرى، تحت جبّة الصّوف البيضاء، ويتقلّص جسدُه داخلَها:

- غاق...

صيْحة تجمّع وانضمام، صيْحَةُ موْت سُمعت فجأة فى السُّهوب، عندما انقضّ عليه وعلى أهله قتَلَةٌ استأجرهم سُلْطَانٌ مهْزوم.[٥٦]

---

٥٦ - استولى أبو حمّو على تلمسان " وعلى سائر أعماله فأوعز إلى بنى يغمور من شيوخ عبيد الله من المعْقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العيْن مخرج وادى زا، فاعترضونا هنالك، فنجا منّا من نجا على خيولهم إلى جبل دَبْدو، وانتهبوا جميع ما كان معنا، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنتُ فيهم، وبقيت يومين فى قفْره ضاحيًا عاريًا إلى أن خلصت إلى العمران، ولحقتُ بأصحابى بجبل دبْدو، ووقع فى خلال ذلك من الألطاف ما لا يُعبّر عنه ولا يَسَعُ الوفاء بشكره، ثمّ سرْنا إلى فاس " (التّعريف، ص ٢١٧ - ٢١٨).

أهو انتقام جائر أم عادل؟ حسَم خَلْد المسألةَ، لا تعدو الحياة أن تكون لُعبة، كلّ امرئ يتدبّر أمرَه ويُدير لعبَه، ويربح ويخسر، أمّا الحُكم فى قيمة الضربات التى يسدّدها فى لُعبته، فهو من أمْر اللّه وَحْدَه...

تمكّنت الزّوجة والأبناء وعدد من الخَدم من الفرار والنّجاة بنفوسهم، ولاذوا بالجَبَل، وأفلت خلدون هو أيضًا واخْتفى، وهو المتعوّد على كلّ الدّروب الخفيّة والخبير بها، ونَجَا مرّة أخرى إلاّ أنّه اضطُرّ إلى أن يسِير سيْرًا حثيثًا ليلتحق بِذَويه ويواصل طريقَه بكلّ إصْرار، وبلغُوا فاس مُنْهكى القوى، وبفضل اللّه المُجزى، كان استقبالهم فى مستوى استقبالهم أيّامَ كان كاتبًا للأوامر وكان له الحكم والنّفوذ، إبّان يَفَاعته ومجْده...

واتّفق أنّ القائم بالدّولة آنذاك كان ذلك الوزير (أبو بكر بن غازى) قائد الجيوش المرينيّة الذى انتصر بفَضْل خلدون.

عادت حياة القصر والنّفوذ والثّروة، لمّا أطاح بهذا الوصىّ رجلان دَعِيّان طالبَا بالعرش[٥٧] تتالى الدّول، ويتلو الملْكَ الأوّل مُلْكٌ ثَان، ومن الأوّل إلى الثّانى لا يتغيّر شىء فى المغرب الذى كان قدَره المحتوم أن يبقى فى غليان أبدى! كلّ دَعِىّ مُطالب بالعرش يصبح

---

٥٧ - هما الأمير عبد الرّحمن بن أبى يَفَلُوسَنْ من ولد السّلطان أبى على والوزير مسعود بن رحّو بن ماساى، وقد أطلقهما السّلطان ابن الأحمر وبعثهما لطلب الملْك بالمغرب (التّعريف، ص ٢١٩).

صديقًا ثم عدوًا لهذا الصّفىّ المُفَضّل، حتّى أنّ خلدون فرّ من جديد من فاس إلى الأندلس، فى شهر سبتمبر الذى كان عكرًا أكثر ممّا كان الشّهر نفسُه فى خريف العام الماضى عندما كان خلدون ببِسْكَرَة، وكان لونُه أقلّ صهبة، ولكن هل كان فى وسْع خلدون أن يستجمع كلّ العناصر المشتّتة والمفقودة التى كان الحفل الأندلسى القديم يلتئم منها؟ كيف للفَمِ الواحد أن يُقبّل القُبْلة نفسَها مرّتين؟

لقى الخليفةُ خلدون فى أوّل الأمر بالبرّ والكرامة، ثمّ سُرْعان ما أصْغى إلى أصداء أطلقَها أشرارٌ وأتَتْ من فاس[٥٨] فما راع خلدون إلاّ أن أوْصَدت غرناطة أبوابَها فى وجهه، ولفَظَتْ هذه العبقريّةَ الخَطرةَ لفظَ النواة، فقيدَ بالقوّة إلى ميناء هُنَيْن الصّغير قرْب تلمسان، العاصمة التى رُدّت إلى السّلطان أبى حَمُّو، وقد استرجع عرشه آنذاك، وهو ما لم يكن فى الحسبان ولا فى الاحتمال إطلاقًا...

يكفّ خلدون عن الكتابة ويرْمى بالقلم، ويُصْغى، يزقزق الشّحرور وأبو زريق حول القلعة.

عَلَتْ محيّاه ابتسامةٌ يغلب فيها الازدراء على المرارة، ثمّ عاد لينظم خيطَ ذكرياته.

---

٥٨ - يقول ابن خلدون: " لمّا قدم ابن ماساى على السّلطان ابن الأحمر -وقد أغروْه بى فألقى إلى السّلطان ما كان منّى فى شأن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتى إلى العُدْوة ونزلتُ بهُنَيْن " (التّعريف، ص ٢٢٧).

إذن ما زال حمّو الحقود متسلّطًا.

أتراهُ سيُظهر من اللّين ومن الذّاكرة ومن النّسيان -بحسب ما تقتضيه الظّروف - بقدر ما يظهره هذا المنفىّ، الذى يُغمَر ويُبْتلَع دومًا، ثمّ يطفو وينجو دوْمًا؟ وقد كان له من الأصدقاء ومن الوُسطاء الذين تنافسوا فى الشّفاعة النّاجعة له ما استطاع معه العودة إلى تلمسان حرًا فإن لم يَكُن النّسيان ، فهو الغفران، ورجعت الحُظوة ملموسةً والمحاباة حقيقيّة، كان خلدون يملك التحكّم والسّيطرة نفسهما، لكنّه يستعملهما بطريقة مختلفة، كان شُغله الشّاغل هو أن يضْمَن لأسرته الرّاحة والأمن، وكان لا يتردّد إلاّ على أهل التّقْوى والوَرَع، البعيدين كلّ البُعد عن المؤامرات والمكائد، كان يدرّس بالمساجد، ويَشْهدُ عودةَ المُريدين أتباع أبى مدين، ويفْحص النّصوص، ويحجّر على أخيه أن يحدّثه عن أمور القصر...(٥٩)

بجانبه قطّ أليف، مغمض العين وقد مدّ أذنه ليُصغى إلى نشيد الطّيور فى الخارج، وكان يَمُوء ولِسَان حاله يقول:

---

٥٩ - يقول ابن خلدون: "نزلتُ بهُنَيْن، والجوّ بينى وبين السّلطان أبى حمّو مُظلم بما كان منّى فى إجلاب العرب عليه بالزّاب.. فأوعز بمُقامي بهُنَيْن. ثمّ وفد عليه محمّد بن عريف فعذله فى شأنى فبعث عنّى إلى تلمسان واستقررت بها بالعبّاد، ولحق بى أهلى وولدى من فاس وأقاموا معى، وذلك فى عيد الفطر سنة ستّ وسبعين، وأخذت فى بثّ العلم" (التّعريف، ص ٢٢٧).

- خَلْد... خَلْدُون.

هزّ الكاتب كتفيْه.

هل وُجِد قَطُّ ملك أو سلطان عاشر هذا الشّخص الشهير المَلْحَمى، دون أن يشعر بالرّغبة فى استعماله، حتّى وإن كلّفه ذلك غاليًا وندم عليه؟ يؤول الحال بالأمراء كافّتهم إلى أن يسُوسوا بكيفيّة واحدة؛ وهذا هو السّبب الذى جعل حَمّو يحتاج إلى استئلاف الدّواودة والتّعْويل عليهم.

وهل من سَفِير مُمكن غيرُ خلدون؟...

يُسمَع صوتُ نمر وقد بُوغت فى الشّعاب وكأنّه مواء هرّ غاضب، ويُسمَع للقلم صريرٌ عند كتابة آخر خطّ فى التّوقيع على السجلّ... تقريب: كاتب العلامة وكاتب التّوقيع وآخر سفير للسّلطان. بين هذا وذاك يوجد تاريخ المغرب المعاصر كاملاً! كفّ المتوحّدُ عن الكتابة ليجد نفسَه يعدو به جوادُه نحو الجنوب، ورأسه ملىء بالتكّتّم والتحفّظ، وقد أجاب السّلطانَ ظاهرًا إلى تكليفه بالسّفارة.

وذات ليلة انتهت مرحلةٌ من مراحل سفره عند فندق البَطْحاء، فوجد الفندق نفسَه، ولكن دون النّوم الذى كان ينعم به فى شبابه، ولمّا كان الغد وعوَض أن يدور شمَالاً فى اتّجاه الزّاب، عَدَلَ ذاتَ اليمين وركض به جوادُه نحو مَنْداس...

كان رجال من أولاد عريف فى اصْطياف مع أميرهم، مخيّمين فى نواحى جبل كُزُول، وعرفوا خلدون عند مروره، فرجوا منه النّزول عليهم والإقامة بينهم. ودام المُكُوثُ أيّامًا. كان النّصير مُنهَك القوى، ولم تكن له غاية مباشرة، فكان يبحث عن طريقه.

وحدث له أن قال:

- فليطمّ البحر العواصم والسّلاطين! كلّ مُناى الآن خِلْوَةٌ!

أجابه شيخُ بنى العريف على التوّ:- وأنا أمنحك إيّاها، تَرْتجّ قَصَبَتى بِتَاوُغْزُوت على صَخْرة، ولكنّها ما تزال متينةً بما يكفى لإيواء جَسَدِكَ، وهى خربة بما يكفى لأن لا تُحْسد عليها.

المأوى

تهُبّ ريحٌ باردة جدًا ثارت من مدينَتَىْ تِيهرْت العاليَتَيْن ومن غابة الأرْز فى مدّاد، وتهزّ كلّ شىء حتّى برج الحصن الخرب، وكأنّ قلعة ابن سلامة تتأرجح على الصّخرة الثّابتة.

بالخارج تتدفّق المياه الهائجة، سيتهاطل الثلج عمّا قريب، وبالدّاخل تُخيّمُ العَتمة الجامدة، والرّطوبة الخفيّة، وكانت الدّويبات تتسلّ حثيثًا، تريد أن تختبئ تحت الأرض أو تهتزّ وهى خائفة قبل أن تموت.

يجلس خلدون على حصير ويكتُب دون انقطاع، وقد عاد إليه كلّ ما أوتى من قوى طيلة حياته التى قضّاها كالطّير المهاجر، عَادَت لتشعّ فى عينيه اللّتيْن استدارتا وكأنّهما بُؤبُؤتان ثابتتان فى عيْنَىْ بُومة.

تصعد أصوات قَمِيرَة وإمَاء لها من فناء سُفلىّ، عميق وكأنّه بئر، تصعد خافتة وبعيدة وأقلّ جلاء ممّا كانت عليه فى المعتاد.

تمتلئ أذنا خلدون بغوغاء خافتة متراخية، لكنّه لا يأبه لذلك ويواصل الكتابة.

هل من أسف؟ هل من رغْبة؟ لم يعد له متّسع من الوقت ليفرغ للتّفكير فى ذلك. إنّه يَعْمل. إنّه يشيّد صَرْحًا ويُدعّمه ويُوَاصل تشييده، صرحًا ابتكره وتصوّره بعبقريّته، وأحكم ترتيبه وتنسيقه بعلمه، وأنجزه بكدّ وعناء لا هوادة فيهما، وبقوّة إلهام طغت عليه أكثر ممّا طغى عليه كلّ ما طمح إليه قديمًا.

عكف على تأليف هذا الكتاب ونَذَر نفسه لهذا العمل، بعد أن تخلّى عن الشّواغل كلّها؛ إذ هو ينْعم فى نهاية الأمر بالأمن والطّمأنينة فى هذا المأوى حيث وجدت أسرتُه مَلاَذًا إلى جانبه، ذلك أنّ فُرسان أولاد عريف انصرفوا إلى تلمسان ليقنعوا السّلطان بأن يكتفى بوجود يَحْيى وبخدماته، وأن يدَعَ خلدون فى عُزلته يصنع معجزة من العلْم والفكر والذّكاء، ويخلق أثرًا حملته نفسه طويلاً ويكون فخرًا للمَغْرب وللسّلطان برضاه وتأييده، وقد أُخِذ حَمُو على غرّة، فَقبِل، وقبْل أن يتدارك أمره ويتراجع عن قراره اصطحب أولاد عريف أسرة خلد أجْمَعها...

ومنذئذ نعِم خلدون بالهدوء والسّكينة، وبهجة فريدة فى الانغماس فى مجهود واحد، لا حدّ له من حيث الوقت ولا من حيث الطّاقة، يدوم هذا الكدّ منذ أربعة أعوام كاملة حبس فيها نفسه بمحْض إرادته وأنتج فيها إنتاجًا هائلاً.

كان القلم يتمايل فى يده ويرسُم على الصّحف:

فى العمران البدوى والأمم الوحشيّة والقبائل...

ترفرف فراشات بنّيةُ اللّون أمام عينى المؤرّخ، تشبه فراشات الواحات فى الرّبيع، رغم البرودة الشّديدة فى تلك البقعة، فلم يكن الفصل فصل فراشات!...

يَجْمع خلدون الصّحُفَ المُتناثرة.

هذه الصّحف التى ينتهى بها الباب الأوّل من الكتاب، وفيه مقّدمة وجيزة ومكتنزة، خاطفة وغزيرة، وفى أسفل الخاتمة خَطّ اسمَه، وهو يَعلم أنّه اسم كُتِب له الخلود، إلاّ أنّه بلغت سمعَه أصوات غريبة، هل أنّ أبناءه يحدثون كلّ هذا الضجيج وهذه الغوغاء وهم يصطادون تحت الأشجار؟ هل أنّ ريح الشّمال العاتية تُحدث هذا الصفير كلّه.

تخلّلتْ أصابعُه النّحيفة الصّحفَ المتراكمة التى حُمّلت بالحواشى والأرقام. يا لها من نعمة فى أنّه استطاع حتّى نهاية المطاف أن يجحد النّصب والكلل، وأن يتغلّب على جسمه المنهك المضنى، ويحافظ على الوتيرة الباهرة وسرعة دماغه الهائلة والخصبة! ها هو الكتاب وقد ثبّت ليصمد أمام النّسيان على مرّ الأزمنة، هذا المؤلَّفُ الضّخم الذى ابتكر تخطيطه ابتكارًا مطلقًا والذى أوجز فيه أروع الوثائق وأحسنها، الوثائق التى جمّعها يومًا فيوم، وقد ألّفه وهو فى تمام صَحْوه وفكره على أتمّ ما يكون الفكر جلاءً ووضوحًا، ألّفه مع عناية واحتراز ودقّة صارمة، وأودع فيه الحقائق اليقينيّة العالية،

وقد حدث له أنْ كتب أبوابًا طويلة لا معين له فيها إلاّ ذاكرته، وهى أجمل الأبواب، ويبدو المجموعُ العجيب المُذهل وكأنّه وَحْى، غنىّ ولامع وصادق، وُهب الحركة والحياة أُشبع بكثافة وقوّة ينبعان من صميم طبْع المؤلّف، وقد أضفى عليه مزيّة وهى الوضوح الذى بلغ به درجة لم يملكها أىّ مؤرّخ مسلم آخر، وفى هذا التّاريخ لإفريقية الذى لا يضاهى، التزم الرّجل النزاهة والكمال، وهو الذى كان أكثر النّدماء والجلساء روعة ومرونة، وأكثر الدبلوماسيّين التواء، فلمّا تقلّد مسئوليّات المؤرّخ تسلّح باستقلاليّة الذهن والتمييز الجلىّ بين القِيَم، ويقتضى منه تفوّقُه نفسُه أن يخضع للمراقبة الصّارمة وللتثبّت والنّقد الشديد والتّمحيص كلّ مصدر من مصادر الأخبار، وكلّ عرض من عروضه المختصرة الشخصيّة.

لعلّ الأجيال اللاحقة ستعيب على هذا التّاريخ الدّسم الكثيف أنّه لم يخصّص إلاّ جزءًا ضئيلاً لشئون العصر القديم، ذلك أنّ خلدون يجد نفسه مرتاحًا مع الماضى الذى أمكنه أن يُعاين يوميًا بقاياه من الأمور البشريّة أو التّنظيم الاجتماعىّ التى احتفظ بها وتواصل العمل بها، تُصَوّر له قرطاج ورُومة وبلاد اليونان الأفكارَ أفضل ممّا تصوّرُها له الإمبراطوريّات التى لا يُجيد فيها القولَ إلاّ إذا ردّ صورة تركيبها إلى صورة الممالك والدول القَبَليّة وقايَسَها بها، فليس الاستحقاق فى رأيه هو العلّة فى قُوّة أمّة، وإنّما هو العدد والشّوْكة، وذاك هو العصبيّة: تنْهار الشّعوب والدّول حالما تنعدم منها العصبيّة.

لم يفصل البتّة بين الجغرافيا والتّاريخ، فهما ليسا فى نظره عُنصرين توأمين فحسب، بل هما متّحدان؛ إنّ الأوطان لا وجود لها على ما يظهر إلاّ بسبب القبائل التى ترتادها، وكأنّها لا حياة لها من ذاتها.

ذلك أنّ عبقريّته الدّفينة لا تتصوّر عبقريّة القدامى المختلفة حقّ تصوّرها، فإذا ما تعلّق الأمرُ بغَيْر العرب والبربر يمرّ دون إلْحَاح؛ إذ إنّه أذكى وأخبر وأدقّ من أن يُلحّ على ما هو مجهول أو ما لا يمكن تصوّره.

كان يقول ويُكرّر:

"فإذًا يحتاج صاحب هذا الفنّ[٦٠] إلى العلم بقواعد السّياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السّيَر والأخلاق والعوائد والنّحَل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بوْن ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتّفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدّول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها ودواعى كوْنها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتّى يكون مستوعبًا لأسباب كلّ حادث، واقفًا على أصول كلّ خبَر وحينئذ يعرِض خبَر[٦١] المنقول

---

٦٠ - أى علم التّاريخ.

٦١ - ما بين قوسين غير موجود فى النصّ الفرنسى وأثبته المترجم من الأصل العربى فى مقدّمة ابن خلدون.

على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مُقتضاها كان صحيحًا، وإلاّ زيّفه واستغنى عنه"(٦٢)

قد وهب نفسه إلى هذا العمل الذى كان حُلمَ حياته، وبلغ فى ذلك غايات القدرات الخلاّقة، وبما أنّه يجد نفسه الآن قد كلّت، فهو يُذْعِن لهذا الكلال الذى بسَبَبِه بدأت يداه تَرْتَعشان...

لماذا تذكّر فجأةِ أمورًا جزئيّة جَرت فى دفّة مُزْنى، وقد انقضى عليها الآن عشر سنوات. عشر سنوات.. السَّفير التّلمسانىّ، رسول تكدّة الملثّم... إلاّ أنّه لم يدرك تسلسل الوقائع فى ذلك وترتيبها... هل أنّ أبا حَمُّو بيده الصّولجانُ حقًا وما يزال يُمْسك بمقاليد الدّولة الوَادِيَة، دولة بنى عبد الوادى، أو أنّه طرأ جديد؟...

ثمّ يَحْيَى، لا يزال حاجبًا، تقديرًا لا تحْقيقًا... وقد أنف الخطيبُ من مهاجمته. يا ترى ماذا جرى لخطيب؟

لم يحدث شىءٌ، وحينئذ فماذا يفعل خلدون فى قعر هذا البُرْج المُنْهار حيث تدُور فراشات السِّحْر أمام ناظريه؟...

ماذا حدث لخطيب؟ علم النّاس خبَره، كان قد اتّبع مآل السّلطان المرينىّ الذى عاد إلى فاس، وكان يملك هناك بساتين ومَنَازل، وقد مات، مات فعْلاً. خصّه خلدون بفقرات عديدة... لا بدّ أنّه خَبَر غَوْر الهاوية وهو فى أوْج المجد والشّرف والعزّة، كانت الأحقاد سببًا فى إبقائه فى الحبس... تَتَالتْ أسماء بسرعة فى ذاكرة خلدون.

---

٦٢ - المقدّمة، ص ٤٥ - ٤٦.

لم تكن فاس هى المرحلة النّهايّة للرّجل الغرناطىّ الصّفىّ والمفضّل لدى السّلطان، الوزير الشّاعر والصديق الخائن، وإنّما كانت طَنْجَة، وكم من مرّة أُسِر ثمّ أُطلِق سراحُه، وكم من مرّة أُدِين وحُكم عليه ونجا بفضل رجال مقتدرين ذوى نفوذ شفعوا له عند السّلطان! ويكشف مصير خطيب ومصير خلدون عن وجود أشباه فريدة بينهما؛ إلاّ أنّ أحدَهما هو الآن على قيْد الحياة بينما مات الآخر... فاجأتْه المنيّة وهوِ فى السّجن مرّة أخرى. كسّر أشخاص بؤساء أبوابَ السّجن الذى زُجّ فيه بالشّهيد وتُرك، وقتلُوه خنقًا فى مَحْبَسه، وقد كان منذ زمن وشيك أُمتُحِن وعُزِّرَ وعُذّب، وهم أوْغاد أسبان من زبانية أحد خُصومه، وبعد يومين انتُهك قبرُه وأخرجت جُثّته منه لتُقطع منها أعضاء ويمثّل بها وتُضرم فيها النّار فتُحرق جزئيًا(٦٣)

---

٦٣ - يقول ابن خلدون: " دسّ سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله (أى ابن الخطيب)، فطرقوا السّجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا فى لفيف الخدم مع سُفراء السّلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنْقًا فى محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق، ثمّ أصبح من الغد على شافة قبره طريحًا وقد جُمعت له أعواد وأضرمت عليه نارًا فاحترق شعره واسودّ بشره، فأعيد إلى حُفرته وكان فى ذلك انتهاء محنته " (تاريخ، مجلّد ٧، ص ٧٠٩).

أبَدًا أحبّ خلدون خطيبًا أكثر ممّا بَغَضَهُ، ما أحلى تلك الأبيات التى نظمها الشّاعر فى سجنه وما أحْزَنَهَا:

«بَعُدْنَا وإن جَاوَرَتْنَا البُيُوتُ   وَجِئْنَا بِوَعْظ ونحن صُمُوتْ
وأنْفَاسُنَا سَكَنَتْ دُفْعَةً   كَجَهْرِ الصَّلاةِ تَلاهُ القُنُوتْ
وكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا   وكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتْ
وكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ العُلا   غَرُبْنَ مَنَاحَتْ علينا السُّمُوتْ
فكم جَدَّلَتْ ذا الحُسَام الظُّبَا   وذو البَخْتِ كم خَذَلَتْه البُخُوتْ
وكم سِيقَ لِلقَبْرِ فى خِرْقَةٍ   فَتىً مُلِئَت من كِسَاهُ التُّخُوتْ
فَقُلْ لِلعِدَا ذَهَبَ ابنُ الخطيب   وفَاتَ ومن ذا الذى لا يَفُوتْ
ومن كان يَفْرَحُ مِنْهُمْ لهُ   فَقُلْ: يَفْرَحُ اليَوْمَ مَن لا يَمُوتْ»

لماذا يَشعُر خلدون بالاثنتين والأربعين سنة، وهى عمره، قد ثَقُلَتْ عليه وكأنّها مُنتهى الشّيْخوخة؟

يودّ أن يقوم، فيَتَرَنّح، ويَتَدَحْرج وسَط الصّحُف المُتناثرة.

الغوّاص

أبَتْ الزّوجة الذّابلة المرهقة والمتعبة أن تبكى وتنحب وتشكو، تسهر عند فراش زوجها الذى سيَمُوت وترعاه وتعتنى به، تتأمّل هذا الوجه الفخور، وهو الآن ساكن كابٍ أكهب، وترصد النّفَس الذى يجهد فى الخروج، وهى مُفعمة بالألم واليأس والرّضوخ للقدر المحتوم، وراضية متّبعة فى ذلك عادة كئيبة وإرادة خلدون المدوّخة.

ومن فينة لأخرى تتلمّس أمةٌ مُحْبَطة بأناملها أطرافَ المحتضرِ وهى تبْرُدُ، وتهزّ رأسًا قانطًا، وتتنهّد ثمّ تذكر بورع أحد أسماء اللّه الحسنى المائة.

يَقْبَع فى زاوية أبناءُ خلدون الثلاث: شابّان يافعان وطفلٌ، تربّعوا ساكتين واجمين وقد خيّم عليهم رُعب صامت.

تئنّ الرّياح القارصة وتتسرّب من كلّ خرق من خروق الحائط وثقب من ثقوبه، تتأرجح الأحجار وتنفصل وتثِبُ فى الوِهاد، محاذية جوانب الصّخرة المنحدرة، حتّى غيوم السّماء وظلال الأرض خيّم عليها هى أيضا الحداد والكآبة، ولا تسترجع قميرة فى ذكراها المُوجعة مظاهرَ الأبّهة والبذخ بالأندلس وبِجَايَة، ولا الضّيعة الأميريّة الواسعة بألْبيرة، ولا قصور تلمسان أو فاس، وإنّما تسترجع ذكرى منزل أزرق مُكبّ على هاوية سحيقة مِلؤها الأجنحة والأساطير...

فى هذا المأوى بتَاوُغْزوت تعيش الزّوجة الرّعب والذّعر وكأنّ كلّ شىء أذيّة أو رقية مؤذية، وتكتسى الظلماتُ والنّور ملامح غريبة، وتبدو الأصداء على أنّها أصوات مسحورة، ويحتوى ماء الخزّان على عنصر أو مادّة مُهلكة تُسَمّم النّاس وتُفنيهم ببطء، ثمّ ذاك الهيجان القاتل والذى كان وحده سندًا لخلدون يمدّه بالقوّة فى عمله الجنونى، ألم يكن هو أيضًا نوعًا من السّحْر؟

على الأقلّ، ليْت السّاعة الرّاهنة لم تكن إلاّ رُقيًا تبطل وتضمحلّ...

يفكّر الأبناء وقد غلب عليهم اليأسُ: كان يريد أن يُصبح وزيرًا للسّلطان المَرِينىّ، ثمّ أميرًا على بِسكرة؛ وقد انتعل هذين الرّكابين ليمتطى حصانًا جمُوحًا، ثمّ تقطّعت به سيُور الرّكاب، كمْ كان يُتْقن رواية هاتيْن المُغامرتين المزعجتين بطريقة مضحكة، وهو يهزأ من

نفسه بشىء من المكر اللّطيف! كان يقلّد بالإيماء مشاهدَ أضحَت واقعًا تاريخيًا، وكان أبناؤه يضحكون، ويُعجبون به.

هذا السبّاح الفذّ، الحىّ واليقظ والواثق والجرىء والحازم، الذى يسبح بجسارة على السّطح ويمضى قُدُمًا فى الهدوء أو فى العاصفة، أو يسرى بين مياه متنافرة، والذى كان يغوص ليطفو متألّقًا لامعًا، ها هو الآن يغرق فى الأغوار السّحيقة التى لا يقدر بشر على الإفلات منها والصّعود ثانية إلى السّطح.

تُمسك الأمَة اليائسة بين أظافرها قدَمَىْ سيّدها الجامدتين والباردتين.

تلك هى العاقبة المفجعة لأربع سنين من الإنتاج الخصب والإسراف الفكرى الخارق والمُذهل، أربع سنين كانت أكثر إنهاكًا من حياة بأكملها مليئة بالهجمات والمخاطر والمجازفات والروائع والويلات والنَّكبات.

تصعد يدا الأمة متلمّسة جانبىْ المريض المجوّفين، تُحرّك رأسَها القانط، تنحنى قَمِيرَة، وتنهار على الوجه الخالى من البريق واللّمعان...

فى هذه اللّحظة بالذّات تَتَفتّحُ عيْنا خلدون، فَعَرِف الأشخاص الملتفّين حوله.

كان الغوّاص الفذّ، الذى أدرك القاع فى لُجّة الموْت، يحْبس أنفاسَه، ويصعد بتُؤدة إلى السّطح.

الخناجر المتقارعة

كان خلدون ومُزْنِى يتحادثان مِثْلَما يتقاتل النّاس ويتصارعون، بأدب ولطف وبشراسة.

بالأمس تاوغْزُوت وقلعة ابن سلامة، واللّيلة بِسْكرة، وهذا يتلاءم تمامًا وطريقة خَلْد؛ فلم يكن العمل والكدّ والعناء ولا العزلة ولا المرض لتستطيع أن تغيّر هذا الطبع طويلاً، وها هو يَثِب من عتبة المنيّة إلى وسط الحلبة بعد أن أشرف على الموت، ولكن أىّ المشاريع الجديدة يَقْصِد وأىّ الغايات يَؤُمّ؟

هذا الذى بُعث من جديد من الأنقاض والخرائب ونَجَا من رُقى السّحر والشّؤم، شرع فى الكلام وقال بادئ الأمر:

– طَرَقَنى مَرَضٌ أوْفى بى على الثّنيّة لولا ما تداركَ من فضْل اللّه.

أجاب مُزْني:

- الحمد للّه الرّحيم الرؤوف، وأهلاً وسهلاً بك. هل قدِمْتَ من تاوغزوت مباشرة؟

- نعم وذلك بقَطْع مراحل قصيرة ومَعَ رفاق اصطحبتهم في الطّريق، وكانوا أيضًا قاصدين تُونس، رغبتُ أن أرى من جديد مدينتي ومسقط رأسي، حيث قرارُ آبائي ومَسْكنُهُمْ وآثارهم وقُبُورُهُمْ ورغبت بصفة خاصّة أن أراجع أيضًا المخطوطات المحفوظة هناك، وهذا ضروريّ لي لأثبت مَسَائل من كتابي وأدوّنها، وأنا مؤرّخ نزيه ودقيق.

- لا تؤثّر فيه الصّداقة ولا العرفان بالجميل.

- ولا حتّى الحقد، أيا مُزْنِي.

ابتسم الاثنان من هذه الإشارة إلى الماضي وواصلا حديثهما. كانت الأقوال تتحرّك في فِكْرَيْهما كالخناجر التي يُراد أن يُتيقّن من أنّها تنسلّ بسهولة وتغادر غمدها في الوقت المناسب.

كشف خلدون عن الأسْباب التي دعته إلى رحلته نحو الشّرق، وكان يجدر أن يضيف إليها كلّ ما شدّ انتباهه وأثار فضوله هنالك. كان سلطان تُونس يُعاني عدّة متاعب ويُقاسي صعوبات لم يكد يتغلّب عليها إلاّ بشقّ الأنفس، ولم يَنْضَمّ زُعماء الجَريد والزّاب إلى السّلطان تمام الانضمام، وكانوا مع ذلك يُظهرون بعض القلق من

التّبعات التى يمكن أن تنجرّ عن عصيان دام طويلاً؛ ولكنّهم كانوا متردّدين فى اختيارهم بين تونس وتلمْسان، ورغم كلّ شىء لم تُغْرِهم هذه الدّولة فى الغرْب حيث يبدو حزب بنى عبد الوادى وهو يتفكّك.

وكان يُشاع بصفة خفيّة أنّ مُزنى لم يكن يظهر أىّ احترام أو يولى أىّ اعتبار إلى حُكْم السّلطان التّونسى، ويُجير كلّ ثائر يأتى من ولاياته وأعماله، وذلك بالاعتماد على جيوشه الخاصّة فى الوقت الرّاهن وقد زاد عددها، وعلى الدّواودة الذى عقد معهم حلفًا، كان يرفض دفع الخَرَاج، بعد أنّ أعلن خضوعه وتبعيّته. كانت عصاباته تظهر العداء بصفة غير رسميّة وتجُوب الجريد، وكان حرّاسه من "القُوم" يخيّمون على الدّوام قريبًا من بِسْكرة.

فكّر خلدون وقال لنفسه:

- يكفى أن يكون السّلطان الحفصىّ دبلوماسيّا ماهرًا، ويضاف إلى ذلك جيوش جيّدة حتّى يخون صديقى يعقوب من الدّواودة مُزْنِى أو يخون مُزْنِى يعقوب، بحيث يقهره السّلطان.

تقاطعت نظرته الذكيّة والحادّة ونظرة مُضيّفه الملتبسة، ثمّ تحدّثا وعلّقا على آثار الزّمن التى تترك علاماتها على وجه الإنسان، أحاط بشفّتى خَلْد شعرٌ أشيب، وكانت لحية مُزْنِى الضّاربة إلى الصّهبة والتى طُليت بصبغة سوداء تشبه فَرْوَ الماعز.

واصل الأوّل حديثه قائلاً:

- كنتُ مخيّمًا بالقرب من آبار الدَّوْسَن من بلاد الزّاب، لمّا تقدّم إلىّ فرسان كانوا فى مُهمّة استطلاع واستكشاف، وهم فرسان الأمير إبراهيم، ابن سلطان تونس.

- والده أبو العبّاس يوجد الآن فى بلاد الجريد لِقَمْع الفتْنَة.

- أخبرونى بذلك، واقترح علىّ إبراهيم أن أتقدّم إلى السّلطان، الأمر الذى يروق لى ويُرضينى.

- ومرّة أخرى هذه حكاية سلطان!

- نعم هى واحدة أخرى؛ لذا قرّرت الذّهاب إلى الجريد، ولكنّى مدين لك بأن أمرّ ببِسْكَرَة لأحيّيك.

- بِسْكَرة التى كنتَ تُحِبُّها كثيرًا.

- والتى أُحبّها.

- جرَف النّهر فى فيضانه بستانك، وانهار منزلك وتهدّم.

- والمقدّم مختار؟

- اختفى، كان يُكنّ لى عداوة فى صمت.

- بُيُوت الرّجال أنفسهم تخرب...

- هناك أسْماء تَبْقى.

- إذا ما رُسمت على عَمَلٍ خالد.

- هذا فيما يَخُصُّك.

- هل لك أن تبيّن لى وضعيّتَك الحقيقيّة بالقياس إلى السّلطان الحفصىّ الذى سألاقيه، وتبيّن منزلتَك لديه، أيا صديقى؟ لا أَوَدُّ أن أُعْدَم المهارة فأرتكب حماقة.

- هى ما هى، ولعلّها ستكون وضعيّتك نفسها، إن لم تكنْ أفضل منها، هل تَنْتَسب دومًا إلى السّلطان التلمسانىّ؟

- أخى يَحْيى...

انقطع خلدون فجأة عن الكلام، وقد أذهلته ابتسامةُ مخاطبه القاسية، وكأنّها وميض برق عارض فى عينىْ هرّ متوحّش.

- أخوك يحيى... - كان الصّوت يختفى ويخلو من كلّ نبرة- أخوك... أوَ تَجْهَل ذلك؟... هل أن الرّجال الذين يأتون بالأخبار وصلوا قبلك أم أنّهم لم يسلكوا الطّريق نفسه الذى سلكتْه قافلتُك؟ ذلك أنّى علمتُ منذ قليل، وكان لك أن تعلم...

تكلّم خلدون بتؤدة وكانت عيناه تهاجمان العينين الأخريين اللّتين كانتا تتهرّبان، وقال:

- كان لى أن أعلم ما تعلم أنت.

- وكان فى الدّولة لئيمٌ من سَفَلَة الشّرط قدّمهُ أبُو حمُّو وأثَرَهُ واستخلصه فكان من أخَصّ بطَانَتِه. وكان أبو تاشفين، الابن الأكبر،

أيضًا استخْلَصَه وجعَلَهُ عيْنًا على أبيه. وقد أصبح موضع ثقته وأمين أسراره، وهو يأمل فى الحصول على أكثر من ذلك بكثير، فأثار حفيظتَه على أخيك، نحن الآن فى زمن رمضان، أليس كذلك؟... إنّ أتعاب الصّوم تُثير الأعصابَ... وفى هذه الفترة تَشْهد الحاشية الصّلاة بالقصر كلّ مساء عند غروب الشمس.

كان مُزْنى يبْحث عن كلماته ببُطء يُضْنى السّامع ويعذّبه، تسمّر خلدون فى مكانه ولم يستعجله فى الكلام، كان مُزْنى ينطق بطريقة شاقّة، وكان نُطقه يزداد حرَجًا وارتباكًا.

وقال فى النّهاية:

جَمَع أبو تاشفين رهطًا من الأوْغاد كان يرتاد معهم الأماكن القذرة، وكان يطوف بهم فى سكك المدينة، ويطرقُ بهم بُيُوتَ أهْل السّرْو والحشمة فى سبيل الفساد ويسْتبيحُها، وذات ليلة ترصّدوا مُنْصَرَفَ يَحْيى من القصْر إلى بيْته... وكان ذلك بعْد التّراويح. خرج من القصر وامتطى بغلته... وفى زقاق كان الظّلام قد خيّم عليه... قال الركاس (؟)[٦٤] الذى روى هذه الأمور إنّهم عَرَضُوا لَهُ وطَعَنُوه بالخَنَاجر ورموا به وهو محتضر يُعانى سكرات الموت تحت حوافر البغلة...[٦٥]

٦٤- Rekas.

٦٥ - انظر وثْبَة أبى تاشفين بيَحْيى بن خلدون كاتب أبيه فى تاريخ، مجلّد ٧، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

ها أنّ الخنجر قد سُلّ من غمْده؛ لكنّ خلدون لم يُظهر أنّه تلقّى ضَرْبةً وأنّه مُتأثّر. وكان يبدو بعيدًا بذهنه وقلبه وفهمه وشعوره إزاء أخيه، فى مكان آخر، وقد شغلته رؤى أخرى وأمور أخرى.

ابتعد عن مُزْنى وخرج بخطوات متّزنة ثابتة.

فى الخارج كان اللّيل المُقمر يخيّم على جوّ بارد وخفيف تُدوّى فيه الضوضاء مظاهر الحياة اللّيليّة طيلة شهر الصّيام.

وُلد خلدون فى رمضان، وفى رمضان مات يَحْيَى...

الْتَفَت الرّجلُ المَطعُون فجأة نحو الذى يمشى على خطاه وهو قَلِقٌ لأنّ صاحبَه لازم الصّمت، ثمّ قال:

- ما أجملها من ليلة، يا مُزنى، وكم ينبغى للّه المُثيب أن يميّز بوضوح ملامح الحقيقة على وجوه البشر! انظر إلىّ. هذه المرّة لم أشكّ فى أقوالك، كُفّ إذن عن متابعتى؛ إذْ ما أزال باقيًا على قيْد الحياة مُدّة من الزّمن. أنا مؤرّخ وُهب المقدرة على الرّواية وعلى الاستنباط، وعلى أن أتنبّأ وأن أتوقّع وأُعْلن وأُنْذِر، وإنّى الآن حزين، يا صديقى الطّيّب، سيتمزّقُ إرْثك إربًا إربًا، وسيكون لخلفائك المواقف الخاسرة والمُخْزية من كلّ أولئك الذين سيتزعّمون مصيرَ هذا البلد.

النّادى العلمىّ

ها أنّ الخنجر الثّانى قد استُلّ من غمده وانبثق فجأة.

أصابت الطّعنةُ فى الصّميم.

يقول خلدون:

- نعم هذا الجزء من كتابى عنوانه: تاريخ البربر، وهناك جزء ثان يبحث فى الزّناتة وحدهم؛ إذ إنّهم أمّة على حدة[٦٦] وأعرفها حقّ المعرفة؛ تولّدت عنها دولتان: المَرِينِيّة بفَاس والوَادِية بتلمسان، وهما اللّتان بقيتُ فى خدمتهما طويلاً.

لاحظ أحد العلماء المجتمعين قائلاً:

---

٦٦ - لا ينبغى أن يُفهم من هذا أنّ زّناتة خارجة البربر، فَهُمّ من قبائل البربر: " الكتاب الثّالث: فى أخبار البربر ومن إليهم من زناتة " (المقدّمة، ص ٧، تاريخ، مجلّد ٧، ص ٢).

- وها أنت تؤوب إلى أحضان الدّولة الحفصيّة.

... تلك التى انحدرت من الموحّدين؛ إذ أسّسها أحد وُلاّتهم الذى أُرسِل ليحكم إفريقية.

- والموحّدون...

- تعرفون ذلك، فقد أتوا من القبائل المصموديّة التى كانت تسكن جبال المغرب الكبرى.

بهذه الكيفيّة كان خلدون يتباحث كثيرًا فى مكتبة تونس مع العلماء ومعاصريه وأصدقائه الذين عرفهم فى طفولتهم وفى شبابه، ومع رجال قلائل وهم شيوخه وقد أطعنوا فى السنّ.

توجد هناك كلّ كتب المؤرّخين والشرّاح، وكتب الذين يجمعون ويرتّبون وأعمال الذين يزوّقون الرّقّ بالمنمنمات المزخرفة، والذين ينقشون الجلد، كلّها منشورة خارج الصّناديق والرّفوف وفوق المناضد المنخفضة والطّنافس، وموضوعة على ركبات الضيوف المنثنية الذين اعتادوا ارتياد هذا الموضع.

استأنف خلدون قائلاً:

- فيما يخصّ مَبْنى كلمة زناتة واشتقاقها لا يُعْلم فى لسان العرب أصل مُسْتَعمل من الأسماء يَشْتمل على حُرُوفه المادّية الأصليّة: الزّاى والنّون والتّاء، ورُبّما يُحاوِل بعْضُ الجَهَلَة اشتقاقه من لفظ الزِّنَا، ويَعْضُدُها بحكاية خسيسة يدْفَعُها الحقّ. أصْلُ هذه اللّفظة التى هى زناتة مُشتَقّ منْ صيغة جَانَا التى هى اسم أبى الجيل كُلِّه، وهو جَانَا بن يَحْيَى، وهُمْ إذا أرادوا الجِنْس فى التّعْميم ألحقوا بالاسم المُفْرَد تاء.

- وهو ما يعطى جَانَات فى المفرد.

- وإذا أرادوا التّعْميمَ زادوا مع التّاء نُونًا فَصَارَ جاناتن، ويقْرُبُ للسّمع منها بعْضُ الصّفير وهو يُؤدّى بالزّاى بطريقة أفضل، فَصَارَتْ زانات لفظًا مُفْرَدًا دالاً على الجنْس.

- ثُمّ ألحقوا به هاء النّسْبة وحذفوا الألف التى بعْد الزّاى تخْفيفًا لكثْرة دَوَرَانه على الألْسِنة.

يتكلّم العلماء وهم يقارعون علْمَهم وحكمَتَهم.

كانت رغْبَة السّلطان الفطِن إرجاعَ مؤرّخ المغرب إلى مكانته المرموقة والمُستحَقّة، بعد أن أُشيرَ عليه بذلك، واطّلع هذا الأمير وأجلّة الشيوخ على عمل الرّجل الذى أنجزه وهو مُنْزَوٍ بتاوغزوت، فنال إعجابهم وإكبارهم، وقد أبهرهم عدد المَوادّ والوثائق المستعملة ودقّتها: تاريخ الأحداث والفلسفة وعلم الكلام والتّاريخ العامّ والتّاريخ الخاصّ بقطر قطر، تتالى كلّها وتترابط حسب مقصد وترتيب يجهلهما المؤرّخون السّابقون.

يقول المؤلّف شارحًا:

- أُعطِى لحوادث الدّول عللَها ومبادئَها[٦٧] وغرضى هو إثبات قانون فى تمييز الحقّ من الباطل والصّدق من الكذب فى الأخبار بوجْه بُرهانى لا مدخل للشكّ فيه، وحينئذ فإذا سمعْنا عن شىء من

---

٦٧ - المقدّمة ص ٨، وكذلك ص ٦: " أبديتُ فيه لأوّليّة الدّول والعمران عللاً وأسبابًا ".

الأحوال الواقعة فى العمران علِمنا ما نحكم بقبوله ممّا نحكُم بتزييفه، وكان ذلك لنا معْيارًا صَحيحًا يتحرّى به المؤرّخون طريق الصّدق والصّواب فيما ينقلونه، وهذا علم ليس من علْم الخَطَابة ولا هو أيضًا من علم السّياسة المدنيّة،[٦٨] وهذا إنّما ثَمَرَتُه فى الأخْبَار فقط، وكأنّه علم مُستنبَط النّشأة، ولعمرى لم أقفْ على الكلام فى مَنْحاه لأحد من الخليقة، ولم يترك السّابقون لنا فى الجملة إلاّ قشرًا دون لُباب وصُورًا قد تجرّدت من موادّها، وصفاحًا انتُضِيَت من أغمادها.[٦٩]

قال فقيهٌ طاعن فى السنّ على سبيل التّنبيه:

- إنّك مَغْربىّ حقيقىّ، تُوجز تاريخ الخليقة فى صفحات معدودات، وتتوسّع فى تاريخ ممالك المغرب فتخصّها بمائة باب...

- ... وممالك إفريقية، إنّ المجوسَ الذين ليس لهم كتابٌ أكثرُ أهل العالم وكانت لهم الدّول والآثار. وأين علوم الفُرْس التى أمَرَ عُمَر بمحْوها؟ لم يبق لنا إلاّ بعض مؤلّفات الكلدان والأقباط أو

---

٦٨ - " ليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقيّة فإنّ موضوع الخطابة إنّما هو الأقوال المُقنعة النّافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدّهم عنه، ولا هو أيضًا من علم السّياسة المدنيّة؛ إذ السياسة المدنيّة هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليُحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النّوع وبقاؤه؛ فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنّين اللّذين ربّما يُشبهانه " (المقدّمة، ص ٦٢-٦٣).

٦٩ - يقول ابن خلدون هذا عند حديثه عن المقلّدين من المؤرّخين (المقدّمة، ص ٥، كذلك ص ٤٦).

اليونان، ويرجع الفضْلُ فى ذلك إلى عناية المأمون الذى عمل على ترجمتها.[٧٠]

- ألم يَبْقَ شىءٌ آخر من حضاراتهم؟

- الحضارة نوبة عابرة من المتْعة والنّعيم، عرَضٌ ظريف يَنْبَعِث من العَدَم، إلاّ أنّ الحضارةَ تنْتقِلُ منَ الدّولة السّالِفَة إلى الدّولة الخالفة. والدّولة والملك إنّما هما من العمران بمنزلة الصّورة من المادّة...

تحمّس خلدون فى كلامه وانصاع إلى ما تُوحى به إليه فَصاحتُه الزّاهِرة.

ثمّ إذا حصل المُلْكُ تَبِعَهُ الرّفَهُ واتّساع الأحوال[٧١] فيَنْبُذُ المتغلّبون الأتعاب والمشاقّ. وينعمون بالقصور والنّافورات والرّياض حتّى يُظهر اللّه إرادتَه. "وَاللَّهُ وَارِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا "...

---

٧٠ - " فالعلوم كثيرة والحُكماء من أُمم النّوع الإنسانى متعدّدون؛ وما لم يصلْ إلينا من العُلوم أكثر ممّا وصَل. فأين علوم الفُرْس التى أمر عُمَرُ بمَحْوها؟... وأين علوم الكلدانيّين والسّريانيّين وأهل بابل... وأين علوم القبْط ومن قبْلهم؛ وإنّما وصل إلينا علوم أمّة واحدة وهم يُونان خاصّة، لكَلَف المأمون بإخراجها واقتداره على ذلك بكثرة المُترْجمين وبذْل الأموال فيها، ولمْ نقفْ على شىء من علوم غيرهم " (المقدّمة، ص ٦٣).

٧١- هو الطّور الثّالث من أطوار الدّولة: طور الفراغ والدّعة (المقدّمة، ص ٢١١، وكذلك ص ٢٠٤).

خلدون مع نفسه

يحيا الآن حياة مزدوجة نوعًا مّا: حياة خلدون الذى شاخ ومُلئ تجربة وحِنكة، ويشارك الأكابر والحكماء فى التفوّق ويتعمّد الإفصاح عن آرائه، ولكنّه يتباحث بصفة خاصّة مع نفسه الغارقة فى تأمّلاتها، ويَلْزَمُ الصّمتَ، وهى أيضًا نفس لها جانب من الفتوّة والصّبا تهب خلدون الشّيخ فى صميم حياته الباطنة والخِصْبة روح الشّابّ اليافع، روح حيّة ونشيطة وسريعة البديهة.

كان يتجوّل فى مدينته سائحًا فى أجزائها، وقد داخله تأثّر وانفعال لم يَعْتَدْهُما. كانت السّكك والأزقّة تَعْرض عليه ذكرياتِه، الواحدة تلو الأخرى، واستردّ بالشّراء البيتَ الأبوى القديم، واتّخذ من الحجرة التى كان أبوه وأمّه قد تُوُفّيا فيها مكانًا للتفكّر والتأمّل؛ فكان يبحث فى لمعان الخزف عن لون أحداق الأعين التى انطفأت،

وكان يسترجع بصبر وصمت رؤية العتبة الملعونة فى قصر تلمسان، وطَيْفُ أخيه يَحْيَى، والموقع المحتمل الذى نُصب له فيه الكمين الفظيع. وكان يستنكر قساوة مُزْنى الحقيرة.

كانت الزّوجة قد التحقت به، وكان أبناؤه يتعلّمون مثلما كان يفعل هو نفسُه فى السّابق، وكان يحظى باعتبار السّلطان وإجلاله وتقديره، وكان يدعوه أحيانًا ليتباحثا سرًا.

كان مُكبًا على تأليف كتابه ليُتِمَّهُ، وقد ألّف منه أجزاء فى برج تَاوُغْزُوت، يبحث الأوّل فى الأمور العامّة، والثانى فى العمران البدوى، والثالث فى الدّولة؛ لأنّها من أمر البدو؛ – إذ لم يكن خلدون وهو الأرستقراطى السّائح فى البلاد يخفى البتّة إيثاره لهؤلاء الفرسان الرحّل؛– أمّا الرّابع فيهتمّ بالعمران الحضرى، والخامس بالحياة الاقتصادية، والسّادس بالحياة الفكريّة.(٧٢)

كلّفهُ السّلطان بأن يُكمل المجموعَ ويَرْفَع منهُ نُسْخة إلى خزانته بتونس، فتناول المؤلّف قلمَه من جديد بحماس فيّاض، وكان يُقدمُ

---

٧٢ – هى الفصول (أو الأبواب) الستّة من الكتاب الأوّل وهو فى طبيعة العمران فى الخليقة: ١ – فى العمران البشرى – على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض، ٢ – فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشيّة، ٣ – فى الدّول والخلافة والملك وذكر المراتب السّلطانيّة، ٤ – فى العمران الحضرى والبلدانَ والأمصار، ٥ – فى الصّنائع والمعاش والكسب ووجوهه، ٦ – فى العلوم واكتسابها وتعلّمها (انظر المقدّمة ص٧ و ٦٨).

بكلّيّته دون تردّد فى طريقة كتابته السّريعة، يكتب كما تدوّن الملاحظات، بجمل مختصرة واضحة بالنّسبة إليه تمام الوضوح! يتعلّق الأمر بتشييد مَعْبَدَ الذّاكرة هذا لأناس المستقبل، ومن ذلك الحرص على أن لا ينسى شيئًا أو أن يخلط أو أن يهمل، وكان اهتمامه بذلك يغلب على اهتمام صاحب الأسلوب الذى يهذّب الشكل والعبارة، كانت أنوار عبقريّته فى وضوحها تلمع بومضاتها بين سلاسل الأنساب الطويلة، فتضفى على سرد الأخبار المملّة حركة تتّسم بالحيويّة سواء كانت حقيقيّة أو خرافيّة، وقد أراد أن يخصّص بابًا مطولاً لموت أخيه المُفْجع وأن يكشف عن عمل يعتمد الوثائق، كان يَحْيَى الشقىّ قد شرع فيه وكان يتعلّق بتاريخ تلمسان(٧٣).

تعجّب البعض قليلاً من كونه لم يكتب قبل سنّ الأربعين، فكان يبتسم بابتسامته اللّطيفة؛ إذ إنّه أنجز أعمالاً جمّة أخرى! لذلك فلولا أسوأ فشل عرفه فى حياته السّياسيّة وانفراده البائس وعُزلته الرّهبانيّة، لعلّه ما كان لِيَكْتُب قط.

---

٧٣ - أبو زكريا يحيى بن خلدون، له كتاب: بُغية الرُّوّاد فى أخبار بنى عبد الواد وأيّام أبى حمّو الشّامخة الأطواد، نشر ألفرد بالـ Alfred BEL النصّ العربى مع ترجمته إلى الفرنسيّة بالجزائر: Histoire des Beni Abd al-Wâd, rois de Tlemcen, Alger 1904-1913.

خلدون والسلطان

كان خلدون يدخل القصر بلا تكلّف وبصفة مألوفة، ولم يكن السّلطان يكره أن يتراءى أمامه كما لو كان الأمر فجئيًّا، وهو دومًا سريع وبارع فى حلّ عقدة من الأمور المحيّرة الخفيّة وحلّ مسألة مستعصية وشائكة. كانت كلماته تكتسى قيمةً كهانةٍ أو وَحْيٍ إلهىّ يأتى ليجيب عن سؤال أو استخارة.

فى ذلك اليوم وجد خلدون السّلطان مُستغرقًا فى أحلامه، وقد أسند جبينه إلى زخارف النّافذة الحديديّة.

- مولانا، هل بدأت أوراق الخريف تتساقط فى حدائقك؟

- لم تبدأ بعد، يا شيخ خلدون.

- لكن أوراق العنب تحْمرّ الآن.

- تَكَادُ تحْمَرُّ.

- جئتك بأشدّها حُمرة، مثل خاتم أرْجُوانى وُضع على نسخة من كتابى، عربون تقْدير وولاء ووفاء، وقد أُنْجز وأُتِمّ وِفْقَ مشيئتِك.

أومأ خلدون إلى العبد الذى كان يحمل المخطوطات فَجَثَا وراءه.

قال السّلطان:

- فليكن هذا تمجيدًا لعمْرك ولقدْرك. ماذا تنوى أن تُنْجز الآن؟

- الدّماغ النّشيط يُناسبه بَدَنٌ طَيِّعٌ، العكس بالعكس.

- يا له من جواب مموّه! لكنّى فى حاجة إليك، أو الأصحّ أنت فى حاجة إليّه.

- رُحماك يا مولاى! ارأف بى، فالأيّام فى تعاقُبها طَرَحَتْ علىّ قدْرًا هائلاً من الألْغاز أرهقنى وأثْقل كاهلى!

- يجب أن أخرج فى غزوة بعيدًا من هنا، لأضمن نفوذى وسلطتى، وإنّكَ تُسافِرُ مَعى.

تنهّد خلدون تنهّدًا يدعو إلى الرّثاء:

- لماذا يا مولاى؟

غَاص نظرُ السّلطان الطيّب فى العيْنين السّوْداويْن ذات الشكل المستطيل وقال:

- لأنّ كبيرَ المُفْتين يَمقُتك.(٧٤)

---

٧٤ - محمّد بن عرفة إمام الجامع وشيْخُ الفُتْيَا.

- صحيح. وأعلمُ كذلك أنّه لام علىّ كونى اختصرْت بما لا يصدّق كتب علماء الأنساب وعلماء الحديث البرابرة، وحتّى مؤرّخى الأخبار والشّعراء، وهو يعيب علىّ عبارتى المفرطة فى الإيجاز وأسلوبى غير المترابط، ولكن يتّهمنى فى المواضع التى لم أوجز فيها بالإسهاب والتّكرار، بل هو يزدرى مما أدّعيه من السموّ لبلوغ الأفكار العالية، إذ إنّه يلذّ لى بصفة خاصّة - على حدّ زعْمه - أن أتنازل إلى عرض تفسيرات فى السّحر والتّعزيم والكيمياء وتفسير الأحلام والرّؤى.

- ويبقى مع ذلك أنّ هذه التّلميحاتِ والتّعريضات المليئة ضغينة قد تنتهى بإقناعى أنّك كائن يُخْشى منْه، وإذن فإمّا أن تبقى هنا وأنصرف أنا بعيدًا، فيمكن حينئذ أن أظنّ أنّك تَحيك لى المكائدَ والدّسائسَ وتَنْصب لى الدّوائر، - أعنى تلك التى تُلصق بك، - وعلى كلّ حال فأنت إنسان ميّت؛ - إذ سينتهز المفتى فرصة غيابى، - وإمّا أن تُصاحبنى وأنقِذ حياتك بأن أضمن لنفسى مراقبة أعمالك. اختر.

- سأتّبعُك، يا شيْخ الإقناع!

وهكذا تنقّل خلدون بعض الوقت مع السّلطان أبى العبّاس (اسْمَان شبيهان وأميران مختلفان)، وكان يغلب عليه الهزء والكآبة، كان يتنقّل على متن جواده ويسدى لمولاه نصائح جريئة حالما يتعلّق

الأمر بمعاقبة عاص تَمَرّدَ أو تابع نَكَثَ عهده بعد أن وعد بالولاء، لكنّه لم يكن يفعل ذلك بكامل السّرور.

وعاد الاثنان معًا إلى تونس، وانقضت أيّام وجد فيها المؤرّخ من نفسه روح المغامرة القديمة وروح النّديم والجليس، ورجعت إليه نفسُه المصارعة التى لم تهدأ تمام الهدوء.

واعتزل فى حقول قرطاج غارقًا فى تأمّلاته، كانت نوّارات وأعشاب طريّة تكسو الدّروب بِمِخْمَل ناعم؛ وكانت شماريخ الزّنبقيّات تحاكى قطع حراب غُرِزَت فى الأرض؛ وكان الحرّاس من "القوم[٧٥]" يتتالون والطلاّب ذوو الوجوه الشّاحبة يتزاحمون فى هواجس خلدون ورؤاه.

قال له السّلطان مرّة أخرى:

- إنّى ذاهب فى رحلة جديدة فهيّا معى.

- لا يا مولاى. إنّى الآن أطعَنُ فى السنّ، وأكتشف لدىّ طبعًا كئيبًا كطبع امرأة عاشت وهى ناقصة حبّ وعشق، أرجوك أن تعذر هذه السّمة من طبعى! تعلم أنّى كثيرًا ما أتخلّى عن الوقار والرّصانة المعهودين فى عُرف الإسلام: وأعزو ذلك إلى دمى، لعلّه أندلسى بقدر ما هو عربى، إنّ السّبب الوحيد فى رفضى هو أنّى

---

٧٥ - Goum.

أتوسّل إليك في تَخْلية سبيلِي لقضاء فرض الحجّ، فحجيج تونس هم الآن على وشك رُكوب البحر.

نظر إليه السّلطان الطيّب مليًا وهو يفكّر، ثمّ قال:

- ومن ذا الذي يقدر مَرّة على أن يُقيّدك، وكيف يمكن أن تُثَبّتَ في مكان؟... اذْهب.

القاضى المالكىّ

رسائل من القاهرة [٧٦]

كتب خلدون إلى أحد أصحابه من الأدَباء:

"أقَمْنا فى البحر نَحْوًا من أربعين ليلة، ثمّ وَافَيْنَا مرسى الإسكندريّة[٧٧] وأقمتُ بالإسكندريّة شهرًا وانتقلتُ إلى القاهرة.

"يا لهذا العدد الهائل من الوَثَائِق الحيّة والملموسة! يا لها من مادّة تَصلح تَكْمِلة لكتابى"!

---

٧٦ - لم يكتب ابن خلدون لا هذه الرّسالة ولا التى تليها ولم يخصّ بهما أحد أصحابه، وإنّما هما جزء من حديثه عن نفسه ضمن كتاب التّعريف، ص ٢٤٦ وما يليها: الرّحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر.

٧٧ - أخطأت الكاتبة فذكرت مرسى الإسماعيليّة بدل الإسكندريّة.

"هذه المدينة الرّائعة لا يُضَاهيها شئٌ، لا تُونس ولا بِجايَة بمئات الآلاف من الأنوار وبأرْبَاضها، ولا غرناطة الشّهيّة، ولا فاس الزّاخرة والفاخرة.

"عدلْتُ عن الحجّ لأنّى أرغب فى أن أنْعمَ بهذا المُكتَشَف العُجاب، سألحق بالحجيج فيما بعد".

"ولمّا دخلتُها انْثَالَ عَلَىّ العلماء وطلبة العلم وذلك بمجرّد ما بلغهم من صدى شُهرتى، فرأيتُهم ينحنون لى أو يُقبّلون كَتفِى وبُرْنسى ويَدَىّ، وأبدو أمامهم كأنّى أُلْقى عليهم كلامًا مقدّسًا يتلقّفونه بخشوع، أُلتُمسَ منّى التّدريس هنا، وكيف السّبيل إلى أن لا أقبل وهُم لَمْ يُوسِعُونى عُذْرًا؟"

فَجَلَسْتُ لتدريس الفقه بالجامع الأزْهر، تَخَيّلْ رِبَاط أبى مَدْين أضعافًا مُضاعفة!

" ثمّ كان الاتّصال بالسّلطان[٧٨] الذى وَفّى لى الجِرَاية من صَدَقَاته، لكن بقيت ذكريات أصحابى ومدينتى تجول بخاطرى فترقّ نفسى وتحنّ، هذا مع أنّ تونس أصبحت فى ما يخُصّنى مليئة بالمكائد التى قد لا يُنجّينى منها عطف السّلطان كلّ مرّة. لقد تلقّتْنِى القاهرة بوجْه فاتن يُغرينى حتّى أنّه عنّ لى أن لا ألتحق بالحَجيج".

---

٧٨ - ذكرت الكاتبة الخليفة بدل السّلطان.

" أُناشدك بما بيْننا من صداقة الشّفاعةَ إلى السّلطان فى تَخْلِية سبيل أهلى وَوَلدى، سيأتون إلىّ عبْر بَحْر الرّوم وأمواجه المواتية؛ إذْ حَمَلَتْنى إلى هذه الضّفَاف الهنيئة."

رسالة ثانية

"سلامٌ على وَليّى وتُرْجمان السّلطان".

" ذلك أنّك نقلْتَ إلىّ نقلاً وفيًا كلمات السّلطان التّالية وقد قرأ كتابى:

" لا توجد صورة أكثر شبهًا به من هذه! أمّا أهله وولده فإنّى أصدّهم هنا عن السّفر اغتباطًا بعوْده إلىّ، لا يوجد فى الدّنيا شىءٌ يَقْدِر على أن يَسْتبْقيه: لا مكان فى الأرض، ولا نعمة ولا مجْد، وأنا أقدّر مزاياه بما يجعلنى لا أدّخر جُهْدًا ولا أُهمل شيئًا من شأنه أن يردّه."

"وهيْهات أن أعود"

"تولّيت أمرًا من الجسامة لم يُسبق له مثيل، وَلأنّى الخليفة التّدريس بمدرسة القمحيّة التى ذاع صيتُها وهى من إنشاء صلاح الدّين وَقَفَهَا على المالكيّة يُدرّسون بها الفقْهَ، ومنذ أيّام ولاّنى السّلطان مَنْصبَ قاضى قُضاة المالكيّة؛ وشافَهْتُه بالتّفادى من ذلك، فأبى إلاّ إمْضاءَهُ. تصوّر أنّ المغرب جميعه يُقيم شعائره طِبْقًا

للمذهب الذى أرأسُه والأوامر المقدّسة التى أتولاّها! لم أتنازل عند رغبة الخليفة إلاّ ظاهرًا، فقد علّمتنى التّجارب وُجُوبَ الطّاعة، حتّى وإن دَعا الأمرُ إلى التنَصُّل منها فى الوقت المُناسب".

"أقوم الآن بالوظائف السّامية والدّقيقة المرتبطة بخطّتى وكلّ الواجبات التى يقتضيها ذلك المقام المحْمود، وأُوَفّى جُهْدى بما أمّننى عليْه من أحكام اللّه، لا تأخُذُنى فى الحقّ لوْمةُ لائم، ولا يَزَعُنى عنه جاهٌ ولا سَطْوةٌ، مُسوّيًا فى ذلك بيْن الخَصْمَيْن مُعْرضًا عن الشّفاعات والوسائل من الجانبيْن".

" ليْتَك كنتَ بجوارى فتُعاين عملى: ولاية قضاء تَشُوبُه مفاسد عريقة فى الزّمن، - أسوأ المفاسد التى يُغذّيها ارتشاء القُضاة، فَأعْضلَ داؤُهُمْ وَفَشَتْ المَفاسدُ بالتّزوير والتّدليس بين النّاس منهم. - فوفّيت جُهدى وعاملتُ اللّه فى حَسْم ذلك بما آسفهم علىّ وأحْقَدَهُم، وتلك أفعال قد دربْتُ عليها؛ إذ سبق لى أن تولّيتُ القضاء".[٧٩]

"أمّا فى شأن بيتى بتونس وساكنيه الأعزّاء فأنا واثق من عدل السّلطان واستقامته".

" خَيّبَ مآلى آمالَه فى ما كان ينوى أن يفعل بى؛ - الأمور كلّها بيَد الرّحمان! - من واجب الحاكم أن يكون رحيمًا."

---

٧٩ - " يقول ابن خلدون: " ثمّ ولاّنى (أبو سالم سلطان فاس) خُطّة المظالم فوفّيْتُها حقّها، ودفعتُ للكثير ممّا أرجو ثوابَه " (التّعريف، ص ٧٧).

الحِداد

ارتمى قاضى قضاة المالكيّة على أرْضيَّة المَزار المُربّعة وأخفى رأسَه بين ذراعيه، وأجْهَش بالبُكاء.

انْسحب الطّلبة الواحد تلو الآخر؛ إذ أبَوا أن ينالوا بحضورهم من هذا الألم الشّديد وهذا الحزن القويّ، فأبوا ذلك.

ليس من ملاذ ينفع فى هذه المحنة العظمى، وهذه الطّامّة الكبرى التى أصابت شيخًا ينتقده البعض بقدر ما يعزّه البعض الآخر، حتّى أعداؤه وخصومه ومنافسوه لا يَسَعُهم أن يُسرّوا من هذه النكبة القاسية.

قد أظهر سلطان تونس من الشّهامة وكرَم النّفس ما جعله يسمح برحيل أسرة ذاك الرّجل الذى انشقّ عنه وانْتَصَر لغيْره، وفى الأثناء كان خلدون يحارب ويُصارع ويجهد نفسه فى مهمّته الشّاقّة، وقد

كُشف النّقاب عن المُذنبين وافتضح أمرهم، فثاروا وتألّبوا على السّلطان فى جماعات بلغ عددها حدًا مُخيفًا.

فما كان إلاّ أن خَذَلَ بحرُ الرّوم أُسْرتَه وغدَر بها.

فقد بلغ النّاس بالقاهرة منذ حين خبرٌ مُفجعٌ سَحقَ الزّوج والأب إذ كان مُصابه بالأهل والولد، وصلوا من المغرب فى السّفين فأصابها قاصِفٌ من ريح، فغرقت وابتلع اليمّ المركب بعباده ومتاعه، ولم ينجُ منهم أحدٌ ولم يبقَ منه حطامٌ.

قَمِيرَة المخلصة الوفيّة، المُذعنة والسّاكتة، المطيعة والصّامتة، والأبناء الذين كانوا فى ريعان الحداثة وكلّهم فَخْرٌ وجَذَل وجَمال؛ هم مَرَايا خلدون يتأمّل فيها شبابَه ويتبأ بخلفه النّبيل!...

أنَّ الرّجلُ الموجَع وتَأوّه وقال:

- ضرْبَةٌ واحدةٌ قاصمَةٌ، أذْهَبَت المَوْجُودَ والسَّكَنَ والمَوْلُودَ؛ فعَظُمَ المُصَابُ والجَزَعُ وَرَجَحَ الزُّهْدُ.

ومن الآن فصاعدًا ماذا تعْنى بالنّسبة إليه مشاغلُ وظيفتِه ومخاطرها، وما يهمّه إن عظّمه البعض ومجّده، أو شنّع عليه البعض الآخر وذَمّه. ما الحقّ؟ ما قيمة العدْل؟ ليس إلاّ الألم...

اللعب(٨٠)

لم يعد خلدون يعرف غير الصّلاة والدّعاء والتضرّع إلى اللّه، وكأنّ إلحاحه بِشَغَف ووَجْد يمكن أن يُجْبِر السّماءَ على إجابته عن تساؤلات كان اليأسُ قد أخْطَرها بباله.

قال له أحدهم:

- مولاى، المعذرة إن أعْلَمْتُك بالأمر التالى: لقد عُزلتَ من منصب قاضى القضاة.

تبسّم خلدون، وها قد مرّت أيّام عديدة لم تجد الابتسامة سبيلاً إلى شفتيْه، ابتسم وكان ينظر بِعَيْنيْه الوقورتين إلى الأفق البعيد،

---

٨٠ - لا يوافق ما ترويه الكاتبة هنا ما قاله ابن خلدون فى التّعريف، ص ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٨، ٢٨٥.

وفجأة لاح فيهما بريقُ، الحداد وزوال الحظوة: هذا الإفراط فى السّوء والأذى، وهذا الإسراف فى الشرّ هما فى مستوى قدْره وقيمته، ما زال اللّعب القاسى الشّديد مستمرًا، ذلك لا يهمّ!

إلاّ أنّ حبّه الطبيعى للاطّلاع دفعه إلى السّؤال:

- وما هى الأسباب؟

أظنّ أنّى أعلم ذلك، - وهو ما يهمس به النّاس- تؤاخذ على أنّك تجاهلت الأعراف المستقرّة منذ القديم فى ممارسة وظائفك.

- صحيح جدًا؛ هى عادات مألوفة رسخت منذ مقتل هابيل؛ والطّرق التى أتوخّاها اخترتها عن طواعية وهى مُستحدَثة، مَنْ مِنْ أراذل النّاس هذا الذى حلّ محلّى فى منصبى؟

- هناك تردّد ولم يقرّ القرار بعد، يا مولاى... كان يُظنّ أنّك تَقْبِل بعض المداراة وتوافق على بعض المجاملات... شُهْرَتُك وسُمعتك...

ابتسم خلدون وقال:

- وهذا أيضًا صحيحٌ، كنت من قبْلُ أكثر لينًا وكياسة من الآن، والسّنُون تُضفى الصّلابة على البدن وعلى الرّوح، أمّا فى ما يخصّ المتنافسين على هذه الخطّة فالاختيار يبقى عسيرًا: فهم كثيرون! أمّا فيما يخصّنى أنا فإنّى أُقبّلُ اليدَ التى تضربنى شريطة أن تكون يد اللّه ، فلا من ملاذ غير الصّبر والصّلاة.

ثمّ أدار وجهَه وعاد إلى الصّلاة.

الصّلاة...

كان تلاميذ كبير القضاة المخلوع وأنصاره الأوفياء والمعجبون به كُثرًا فصاروا جمعًا غفيرًا!

غادر خلدون حرم الجامع، وقد التفّ حوله هذا الجمع الغفير في موكب اجتاز المدينة التي أصابها الذّهول لهذا الخبر، وازداد تضخّمًا إلى أن تجاوز السّور وبلغ فُسْحة يجتمع النّاس فيها للتعبّد، حان موعد الصّلاة الرّابعة فرفع خلدون صوته ونادى في النّاس بالآذان، ثمّ سجدف فركع حوله عدد هائل من المصلّين.

وما أن انتهت الصّلاة حتّى علَتْ في النّاس جلبة وصياح تعبيرًا عن محبّتهم لخلدون وعن استنكارهم لعزله، ثمّ اتّسعت الضوضاء وبلغت مسامع الخليفة في قصره الذي كان مغتاظًا من خلدون يكنّ له العداء، كلّ ذلك جعل الخليفة يفكّر في الأمر.

الصّبر...

انعزل خلدون في حجيْرة بمدرسة القمحيّة، لا أحدَ أتقن أكثر منه توخّي التكتّم والتستّر في هذه الغيْبات الوقتيّة، بحيث لا أحد يستطيع التكهّن بما سيؤول إليه الأمر.

بدأت الضوضاء تتفاقم والجمهور يغتاظ، وبدأ يجهر برأيه المنفعل والمضطرب: فيذمّ ويأسف ويقدّر ويستحسن ويقترح، والآن يفضّل القاضي الذي يُظنّ به أنّه عُيّن مكان خلدون أن ينْسَاه النّاسُ.

دخل بعضهم على خلدون قاطعًا عليه عزلتَه، خلدون الذى كان أكثر النّاس فطنة ودراية بالأمر، وقال له:

- مولاى، يجبُ أن أُخبرك أنّك أُرْجعت إلى خطّتك، فأنت كبير قضاة المالكيّة من جديد.

لم يندهش خلدون البتّة، وهو الدّبلوماسى الماهر والمحنّك؛ إذ بلغ الشيخوخة وسط حِيَل البشر التى لا تُحصى وجُبْنِهم ونذالتهم وعَرف منها الكثير.

سأل خلدون:

- وما هى الأسباب؟

- أظنّ - على حدّ علمى و حسب ما يصدح به الجمهور- أن ما اجتمع لديك من نشاط ومقدرة وحزم وحكمة يستحقّ كلّه الاعتراف والتّقدير من عموم النّاس، وقد أشفقوا لحالك وأسفوا لحزنك وحدادك وما نزل بك من بلايا وتحمّلته بصمت، ويحمدون لك صبْرَك على مصابك ورِضَاك به، ويستحسنون فِطْنَةَ السّلطان وعدْلَه؛ إذ اهتدى إلى إرجاعك إلى منصبك.

- وهذا هو تاريخ الحُكومات منذ أن أُسّست أوّل دولة، وأنا ربحت وحُزت رِهَانًا هزيلاً فى صراعى مع البَشَر، ولكنّى خسرت خسارة لا تعوّض فى رهانى مع القَدَر...

قَمِيرَة المخلصة الوفيّة، المذعنة والسّاكتة، المطيعة والصّامتة، والأبناء الذين كانوا فى ريعان الحداثة وكلّهم فخر وحبور وجمال.

الفيّوم وحبّة الملوك

"نرجو من الله نعْمَتَهُ وظلَّ رضَاه وعنايته، وأن يهدينا إلى سَبِيل الخير والفضيلة! "

كان خلدون يكتب فى الكرّاس الموضوع على ركبتيْه، وراَجع الأسطر الأخيرة التى كان بصدد كتابها:

" مع نهاية شهْر رمَضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة خرجْتُ من القاهرة لقضاء فريضة الحجّ".

ثلاث سنوات وأنا قاضى المالكيّة وَفّيْتُ فيها جُهدى ونعمت بتقدير النّاس عاكفًا على تدريسِ علمٍ أو قراءةِ كتابٍ أو إعمالِ قلَمٍ فى تدوين أو تأليف.

" وعدْتُ إلى القاهرة فى السّنة الموالية ولقيتُ السّلطانَ فتلقّانى بمَعْهُود مبَرّته وعنايَته".

توقّف نظر خلد عند تاريخ: خريف ٧٩٧[٨١] وقد مرّ على الأحداث التى رواها خمس عشرة سنة، وهىَ تختم كتاب التّعريف بنفسه الذى كتبه كتمهيد لكتاب العِبَر، وبعد هذه الأحداث عُزل كبير القضاة مرّة ثانية.

أبْعَد عنْه الكرّاسَ وأغمض جَفْنه قليلاً ليتثبّت من حُسْن الخطّ وكماله، وأضاف برقّة نقطةً.

هَبَّ العصفور وغرّد فى قفصه الصّغير المصنوع من القصب، واستيقظ قِطّ وتمطّى ثمّ عاد وتمدّد على الحصير فى وضْع ملكىّ، وتسرّبت من عارضات النّافذة روائح البَصَل والفلفل المقلىّ فامتَزَجت برائحة الحِبْر بشتّى ألوانه، وارتفعت أصواتٌ وضحكات ونداءات، وأصوات الماشية وهى تعود وروائحها المتعفّنة السّاخنة. تُستأنف الحياة ويُستأنف اللّيل فى هذه القرية الصغيرة من قرَى الفَيّوم التى اختارها خلدون لمّا زالت الحظوة.

اشتهى خلدون ثريد الفُول وعَسَّقَلَ النّيلوفر الأبيض الذى كانت الخَوَادمُ تطبخُه على الجمْر.

دقّ بعضهم الباب بلطف ولم يجرأ على رفْع المطرقة.

- من بالباب؟

---

٨١ - نوفمبر ١٣٩٤.

أجاب صوت متدرّج وليّن:

- تلك التى تَعْرِفُها.

- ادخلى.

انفرج الباب قليلاً، وعلى الفور ماء القطّ وزقزق العصفور جذلاً، وظهرت على عتبة الباب عجوز، كان يمكن أن تكون جنّيّة، لا بدّ أنّها وُلدت فى بداية العالم ولن تموت إلاّ فى صبيحة يوم الحساب.

قبّلتْ يد الرّجل المتوحّد، وداعبت القطّ وهَسّتْ وهَمَسَتْ للعصفور أنغامًا غريبة، وقالت بصوتها المتدرّج:

- تلك البنْت التى تدعى حبّة الملِك ما زالت بكْرًا وستكون من نصيبك متى شئتَ.

- أى بوصْفها زوجةً لى؟

- قالت القَهْرَمَانة بتملّق:

- إن كانت تلك هى رغبتك، وإن كانت تلك هى شهوتك.

واختفتْ بالكيفيّة نفسها التى كانت قد دخلت بها.

حَبّةُ المَلِكِ...

يا لها من راعِية للماعز تلفّظت بهذا الاسم على مَرْأى ومَسْمَع من خلدون! يا لها من سيّدة عجوز حلفت بأغلظ الأيمان أنّ البنت عذراء وأنّها تتمنّع عن أنْ تَهَبَ جسَدَها لأوّل مرّة، لكن يجب الإسراع؛ إذ لا يُعرف لها عائلة وهى تتردّد على بيْت صغير تملكه بَغِيّ نُزع التّاج من على رأسها، ظهرت الجنّيّة فجأة وقالت:

إنّها كما يشتهيها الحُبّ والعَقْلُ، غَضّة شهيّة ريّانة كثمرة اقتطفت بالجبل خليقةٌ بِفَمِ السّلطان، وشَوْقُهَا المُضطرِمُ الندىّ يليق برجل يقترب من الشيخوخة، أمّا لَحْمُها البكر الذى لم يَمْسَسْه بشرٌ، لحم شابّة فى ريعان الحداثة، فهى تأوى فيه روح الفضول الذى نجده عند طِفْل تُغريه الخطيئةُ وتَجْذِبُه.

إنّى أريدُها.

قد كانت لخلدون فى السّابق حياة مديدة اعترضته فيها راقصات كلّهن عُجب وغرور لا ترقصْن ولا تغنّين إلاّ بقصائد نُظمت لهنّ وأُهْدين إيّاها، ونَديمَات جشعات أو أنُوفات، ومُومِسات من البدو شغوفات بالجَمّالة بصفة خاصّة، وقد كان اختار بعضهنّ من بين اليهوديّات والإسبانيّات، ووَجَب أن لا يحتفظ من كلّ ذلك إلاّ بيد صغيرة أطلّت من مشرَبيّة بمنزل أزرق اللّون، وبعد ذلك تتالت عليه أمور خارقة للعادة لا يصدّقها العقْل وَتَرَاكمت ولم يكن شريكه فيها إلاّ وجه إمرأة وَحْده، وبقى هو نفسه دومًا... ثمّ كان الفراغ، ثمّ قِمْعٌ قاتل حَفَرَتْهُ سفينةٌ ابتلعَها اليَمُّ ولم ينغلق ذاك القِمْعُ أبدًا. ثلاث سنوات من الحدَاد والتّعليم ومن حياة التصوّف ومن النّجاح، ثمّ حجٌّ شاقّ وعودةٌ لا قرار فيها وخمس عشرة سنة من العزلة فى عُمّق الفَيّوم...

والآن، فى هذا الفصل الذى تزدهر فيه جداول الحقول بزهرة اللّوتس الأرزق، يبغض عزلته، وهو إن لم يَعْرِف السّلْوَان ولم ينسَ حزنَه فلم يَعُدْ يَذْرِف الدّمعَ.

الطريق إلى دمشق

قال خلدون لحبّة الملوك:

- حبّة الملوك، حبّة خلدون، أظنّ أن الأمر فى الحقيقة مُراهنة! ألم يكن غداة اليوم الذى احتجزتكِ فيه فى بيْتى، بيت الفيلسوف، أوفد إلىّ الخليفةُ وأكابرُ القاهرة الرّسول تلو الرّسول يرجون منّى الرّجوع إلى مهامّى السّابقة؟ فأذْعنْتُ واضْطَلعتُ بذلك القدْر الكبير من الشّرف ومن الكدّ، وتنقضى خمسة عشر شهرًا فاتّهَم بالمُبالغة فى العُقُوبات والمُسارعة إليْها، فدُعيت للمثول أمام الخليفة، ثمّ زجّ بى فى السّجن، وعُزلت... إنّها حقّا لمراهنة!

أجابته حبّة الملوك قائلة:

- ولكنّك الآن يا مولاى عادت إليك حريّتك، وهذه بُنَيّتُك الصّغيرة، تنام على ركبتىّ، رضَعتْ من لَبَنِى حتّى شَبعَتْ.

•

- لاءمها هواء الفيّوم وشذى وَنيلِيا النّيلوفر.

- مولاى ، كم تنشّقتُ رائحة اللّوتس وهواء الفيّوم! والبنيّة الصّغرى وُلدت بهذه المدينة وفى بذخ هذا القصر الذى أصبح ملكًا لك، أو تودّ أن ترانا نحن الاثنتين نَقَعَ من جديد بين أيدى العَجَائز وجزّازات الماعز؟ أفضّل أن أمُوتَ لِتَوِى وابنتك معى!...

أيا قميرة المذعنة والصّامتة، وقد زاد عمْرُها ونُبْلها...

همَسَ خلدون قائلاً وقلبُه يُراجِع الذّكريات:

- حبّ الملوك... حبّ الملوك.

لكن ما جدوى ذلك؟ فالرّجل يلذّ له أن يُهيّمن على امْرأة هى أهْل لأن تَسُود، ويكون عَبْدًا لأخْرى لا يُكِنّ لها الاحترامَ.

ألحّت عليه قائلة:

- أودّ أن أبقى هنا.

- ستَبْقين.

هزّ كتفيْه، وحرّك رأسه الظريف والوقور، وقال:

- أوشك أن أسمّيك باسم هذه المدينة التى تَقْهَرُ: القاهرة التى وُضع أوّل حجَر منها عند صُعُود الكوْكب القَاهِر وهو المرّيخ، الذى يَقْهَر العالَمَ، حُفرت الخنادق التى سيُشيَّد فيها السُّور، وأعدّت المَوادّ لتُملأ بها؛ وكان الفلكيّون يرصدون مرور كوكب المرّيخ بالهاجرة؛

وحالما أعلن عن مُرُوره وُضعت أُسُسُ القاهرة، هذه القاهرة التى كان لها أن تضمّ ثلاثمائة مسجد!

سكت خلدون عن الكلام، وخرج لأنّ حبّةَ الملوك كفّت عن الإصغاء إليه.

من جهة الشّرق كانت سلسلة المقطّم الجَدْبَاء تتوهّج باللّونين الأرجوانى والوردى، مثل جبال بِسْكرة عند الغُروب، وعلى كُرْه منه قَصَدَ كبيرُ القُضَاة سابقًا حىّ القرافة حيث تنْتَصب القَمْحيّة شامخة، ومن هناك توجّه إلى مقام الشّافعى، مؤسّس أحد المذاهب السنّيّة الأربعة، وها هو يلاقى هناك شخصيّة تقيّة أخرى، وهو شيخ المذهب الشافعى، ووجده مهْمومًا.

- يبدو الأفق من جهة الشّام مُكفَهرًا، فقد ثارت فى سمائها عاصفة هوجاء، من هنا لا يُسمع الرّعدُ مليًا ولكنّ البرقَ يُرى. وفى هذا الخريف استولى تِمُرْ أو تِمُرْلنك - سمّه كما شئت - على حَلَب...

- وماذا يَرَى حُكّامُنا؟...

- حكّامنا؟

- ألَيْسُوا دومًا اثنين؟ الوزير أوّلا ثمّ الخليفة!

- يا لك من هَازِئ! فهُم يَخْشَون على دمشق وبقيّة المدن الشّاميّة، ويُقيمُون مُعسكرًا بـرَيْدانية، خارج الأسوار، جُمِعت عساكر الإمبراطوريّة كلّها، وعن قريب ستزحف نحو الشّام، ويجري الحديث باصطحاب كِبَار القُضاة لترْهيب هؤلاء الهَمَج المتوحّشين وتَسْكين رَوْع المصريّين. يا للخسارة؛ إذْ لم تَعُد واحدًا منهم!...

- لم أعُد شيئًا، لم أعُد إلاّ نفسي لا غَيْر، وهذا بصفة خاصّة يجْعَلني جديرًا بأن أنْضَمّ إليكم.

- أحْسَنْتَ يا خلدون، لا سيّما وأن قاضي قُضاة الحنفيّة مريض.

- الأمور كلّها بيَدَيْ الله.

ما يُشبه الحلم

كان خلدون فى سُبات عندما بدأ يحْلُمُ، وسَمِعِ صوتًا يُنادى:

- استيقظ، يا خلدون، استيقظ!

أكان ذلك حلمًا أم واقعًا مشئومًا؟ كم كان السّبات عميقًا، بعد أن قطع هذا العدد من المراحل المُضْنِية، وبعد الدّخول إلى دمشق، والخروج منها مرّتين، وخَوْض معركتين تصدّيًا لجَحافل تمرلنك... كان يَلوح الأمل فى إرهاق تمرلنك فيَضْجَر ويُغادر الشّام، وكان هذا نصْف يقين كان معَهُ التّراخى والنّوم.

- اِسْتَيْقظ، يا خلدون!

يلحّ الصّوت على النّائم ويُزعجه.

- ... دمشق... تِمُرْ.

- نعم نحن ما زلنا فى دمشق، ولكن الخليفة غادرها! ذهب ليلحق بوزيره بالقاهرة.

كان كبير القُضاة ابن مُفلح[٨٢] يُمسك مِشْعَلاً، فسقطت منه قطرةُ راتِنْج أحرقت وجْهَ خَلّد، وجعلته يدرك الواقع أحسن ممّا كان يدركه بعبارات ابن مُفْلِح المذْهلة.

الآن هبّ واقفًا، وَصَحَا واتّضَحَتْ رُؤيتُه، وتفحّص الجَمْعَ الذى ملأ عليه فجأة الحجيْرة التى كان يسكنها بالمَدْرسة العَادِليّة. فتبيّن فيهم أعْيانَ المدينة وتُجّارَها وقُضاتَها وكلّ رجال الدّين القادمين من مصر.

واصل ابن مُفلح حديثه بانفعال واضطراب وقال:

- هجر الأمراءُ والمماليكُ الجيشَ، وخطف مُتآمرون الخليفةَ. وفى هذه السّاعة تتّجه سُفُنُهم نحو عرض البحر، ولن يعودوا ليأخْذُونا معهم، وتفرّق ما بقى من الجيش، لقد غُدر بنا وخُذلنا! وستهلك المدينة بساكنيها؛ إذ إنّ عددهم هو أقّل من أن يمكّنهم من الذّود عنها، أمّا تمورلنك فإنّه عوض أن يعُود على أعقابه، أخذَ يُعِدّ العدّة للهجوم.

- إيه! آه!

---

٨٢ - القاضى برهان الدين بن مفلح الحنبلى.

- نعرف جدارتك وذهنك الحاذق ورأيك الحصيف، وحيرتنا لا يعادلها إلاّ فَظاعةُ حالنا، نسألك: ما الخيار؟

تقلّصت مشاعل الرّاتنج لفترة وجيزة ودخّنت فى السّكون المخيّم على الغرفة.

فتح خلدون جفنيه وكشف عن نظر حادّ.

عقد عزمه على أمر وقال :

- ستَتَّبِعُوننى.

- إلى أين؟

- إلى تمرلنك.

- لكن...

- ما لك! يا مُفْلح؟ إنّه رجل، ما هو إلاّ رجل، أصغر عمْرًا منك ومنّى، فهو إذن أقلّ مكرًا، سأتكلّم معه، وله أذنان يسمع بهما، وقد عَرَضَ لى أن أقنعتُ رجالاً هم أكثر عنادًا منه ومِثْلُه شراسة.

- نحن نسلّم أنّ هذه البعثة لا تخلو من فائدة، لكنّ قوّاد الجيش القلائل الذين يسيطرون على السّاحة سيرفضون خروج أىّ كان.

- وما حاجتنا نحن إلى أنْ نمرّ عبر الأبْواب! اذهبوا وهاتوا إلىّ بحبال متينة.

وخرجوا.

كانوا يمشون وراء خلدون فى الأزقّة والسّكك، كان يلوح من القَمَر نِصْفُه، وكان يرقُص فوق قِمَم المآذن، نادى مُؤذّن مُصِرّ النّاس إلى صلاة لفجر بصوت جهورى، غير عابئ بما يجرى على الأرض من أحداث مروِّعة.

همس ابنُ مُفْلِح كبير القضاة:

- فيما بعد، فيما بعد!

ابتسم خلدون، وكانت يقصد بابتسامته نفسَه لا غير، وقد خطرت بباله المرّات العديدة والمدن الكثيرة التى خرج منها وكان المؤذّن يُجْهِدُ رِئَتَيْه من فرْط الصّراخ...

- ناولنى حبلاً، خذوا حبالاً؛ كلّ وحبله؛ وكلّ حبل يمسكه رجلان، رجل من كلّ طرف، وعلى الّذى يبقى من هذه الجهة أن يمسك بالحبل مليًا ولا يُطلقه مهما حَدث!

وتدلّى المفاوضون على طُول الأسوار.

حسَاء تيمورلنك [٨٢]

هناك خيمة ضخمة منصوبة، كلّها من الجلود النّاعمة والحراير الموشّاة التى تلمع بصفائح الذهب والأحجار الكريمة من الدُّرَر، وكانت زرابى كشمير وشيراز تكسو الأرض.

كانت ستائر الخِيَم مرفوعة من جوانبها الأربعة بحيث يستطيع الجيش أن يشاهد تمورلنك باستمرار، تيمور الهائل والمُهاب، صهّر ملوك كثيرين، الفائز فى كلّ المعارك والغازى الذى لا تُشفى غليلَه الانتصاراتُ ولا الغنائمُ.

---

٨٢ - يختلف ما ترويه الكاتبة فى لقاء تيمورلنك عمّا يقوله ابن خلدون فى التّعريف، ص ٣٦٦ وما يليها، وانظر عن هذا اللّقاء ابن عربشاه، عجائب المقدُور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٥٢ وما يليها.

منذ حين نُصبت تحت الخيمة منضدة طويلة منخفضة وخشنة، منضدة لمأدبة عسكريّة وُضِعَتْ فوقها قصاع من اللّوح وأباريق من النّحاس والفضّة، وأقداح الشّراب والعِسَبَة المَصُوغة، بعد قليل سيَفْرغ تيمور لبعثة دمشق.

كان قد استمع إلى خطبة خلدون، التى نقَلَهَا له مُتَرْجمٌ إلى الفارسيّة؛ ولكن يبدو أنّ ما شدّ انتباهه هو سمات المفاوض وهيئته ووقفته ومظهره وأثّرت فيه أكثر ممّا أثّرت فيه الكلمات.

قال تيمور:

- فمن هذا الذى له عمامة خفيفة ويُباين لباسُه لباسَ قضاة مصر؟ من أىّ صقْع وفَدَ علينا هذا الشيخ الجميل صاحب العيْنين الفتيّتيْن، والملتفّ برداء ليّن ورقيق مثل روحه وله لون شبيه بظُلمات اللّيل؟

كانت أسئلة الغازى من هذا القَبيل، ذلك أنّ خلدون بقى دومًا يرتدى ثوب المغرب وبُرنسه الدّاكن الذى نُسج من وبر القعُود النّاعم.(٨٤)

وما كان ذلك ليخفى على رفاقه.

---

٨٤ - "عمامة خفيفة وهيأة ظريفة، وبرنس كهو رقيق الحاشية، يشبه من دامس اللّيل النّاشئة " (عجائب المقدور، ص ٢٥٤).

أراد ابن مُفْلح كبير القُضاة أن يتكلّم على إثره، لكن تيمور لم يعد منتبهًا إليه، وصرّح أنّه سيضع حدًا لهذا النّقاش المملّ وأنّه يدّخر جوابه، فألحّ خلدون، ساعيًا إلى جلب اهتمام تيمور الذى بدأ يتلاشى، وكان المترجم الذى افتُتِن بخلدون يترجم كلامه بما يعادله فصاحة.

هَا أنّ المباراة كُسِبت فى هذا اللّقاء.

تنازل تيمور وقال:

- سننسحب من هنا مقابل أن تدفعوا لتوكم فِديَةَ حرْب نحدّد نحن مقدارها، والآن أنتم مدعوّون إلى مائدتى، يا نوّاب دمشق، وسيجلس زعيمكم سيّد اللّسَان قُبَالَتى.

وجلسوا كلّهم إلى مائدة الطّعام.

سالت الخمر ونبيذ العسل ولبن الفَرس والنّاقة؛ لكنّ الأطعمة كانت تشبه حِساء خشنًا فجًا، أكان ذاك عفويًا أم عن خبث، ولم تكن قطع اللّحم السّليق والأخلاط غير المألوفة التى وُضعت أمام الضّيوف تُغرى أو تثير الشّهيّة وترغّب فى الأكل، كان يعْتَورُ المفاوضين القلقُ والهمّ رغم الفوز الذى أحرزوا عليه، وتسمّروا فى أماكنهم، كان ابن مُفْلِح يجترّ مرارته وكآبته، فأمّا الظّرفاء والموسوسون منهم فقد امتنعوا عن تناول هذا الحساء التّتريّ وتعفّفوا عن ذلك، والذين ما زالوا تحت تأثير الخوف والجزع لم

يستطيعوا الشّرب ولا الأكل، وكان خلدون يظهر على العكس من ذلك جُوعًا يتّسم بالأنفة والاتّزان والتأدّب، سواء كان ذلك مُختلقًا أو صادقًا.(٨٥)

وكان تمورلنك يَرْمُقُه دون انقطاع، ولا يغُضُّ الطّرْف عنه ويُطْرِقُ إلاّ إذا رفع خلد عينَيْه ورَمَقَ.

بادر الذى كان الأكثر حذقًا ولطفًا بقوله:

– يا مولانا الأمير!الحمد لله العلىّ الكبير! لقدْ شرّفْتُ بحضُورى مُلوك الأنام؛ وأحْيَيْتُ بتواريخى ما ماتَتْ لهم من الأيّام. ورأيتُ من ملوك الغرب(٨٦) فلانًا وفُلانًا، وحضرْتُ لدى كذا وكذا سلطانًا؛ وشهدتُ مشارقَ الأرض ومغاربَها، وخالطتُ فى كلّ بقْعة أميرَها ونائبها، ولكنّ للّه المنّة إذا امتدّ بى زمانى، ومنّ اللّه علىّ بأنْ أحْيانى، حتّى رأيتُ من هو الملِكُ على الحقيقة، والمُسلّك بشريعة السّلطنة على الطّريقة، فإن كان طعْمَ الملُوك يُؤْكلُ لدَفْع التّلف، فَطَعام موْلانا الأمير يؤكل لذلك ولنيْل الفخْر والشّرف.(٨٧)

---

٨٥ – يقول ابن خلدون: " ثمّ أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيْته يُسمّونه الرّشتَة، ويُحكمونه على أبلغ ما يمكن، فأحضرت الأوانى منه، وأشار بعرْضها علىّ، فمثلْتُ قائمًا، وتناولتُها، وشربتُ واستطبتُ؛ ووقع ذلك منه أحسن موقع؛ ثمّ جلستُ وسكتْنا " (التّعريف، ص ٢٧٠).

٨٦ – أو العرب.

٨٧ – عجائب المقدور، ص ٢٥٥.

وجد هذا الإطراء وقْعًا حسَنًا فى نفس تيمور المتكبِّرة الجبّارة، وسأل وهو الآن مُفْتَنّ يحدوه حبّ الاطّلاع، فسأل:

- كتبتَ إذن تاريخ المشرق والمغرب؟ لخّص لنا فحْوى عملك.

تحدّث خلدون البليغ بطريقة لبقة عذْبة تأخذ بمجامع الألباب:

- هو تاريخ يَبحث فى كلّ الدّوَل من غير العرب من العجم الذين عاصروهم، وملوك بابل الأشوريّين وملوك الموصل وعاصمة بلاد آشور على نهر دجلة والجرامقة، ويشرح حال أقباط مصر وبنى إسرائيل فى بيت المقدس سواء قبل أن يهدّمها بُخْتَنَصَّر أو بعد ذلك، وفيه أخبار السّامريّين وأكاسرة الفرس وأباطرة اليونان والإسكندر، والرّومان وقياصرتهم، وذكرت مُلوك كندة وكان أحدهم جدًا لى، ومدحتُ الرّسول ومجّدتُ الخلفاء الأربع، ولم أنس الردّات ولا الفتوحات، وأيّام الفوضى وأمر الفاطمىّ المحيّر الذى أيّده العبّاسيّون باعتباره من آل البيت.

توقّف خلدون عن الكلام ليشرب سائلاً كريهًا منفّرًا جعله يقطّب وجهه المبتسم، وواصل قائلاً:

- لم أهمل شيئًا من الدّولة التى أسّسها الأمويّون بأسبانيا، ولا الممالك التى أنشأها دعاة الشّيعة، كما ذكرت بويْهىّ الدّيلم والأتراك السّلجوقيّين بما يستحقّون من الذّكر، وتصورت تاريخ البرابرة وحرّرته بكيفيّة لا يمكن معها أن يُضاف إليه أمر جديد...

- وعنّى أنا، ماذا ستكتبُ؟

- هل تؤمن بالقَدَر؟ هذه اللّحظة التى أنعم فيها برعايتك كانت مقدّرة لى وكانت فى انتظارى، ولِىَ اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنّى لقاءك، لم أكن أملك فيما يخصّك إلاّ لمحة، باستثناء مجْدك وانتصاراتك المعروفة من النّاس كافّة، وأضيف إليها اليوم تكملة رائعة، أمّا بالنّسبة إلى ترتيب تاريخك، فهو ذائع الصّيت وأشهر التّواريخ، فكيف كان يمكننى أن أجهله؟ احْكُم بنفسك.

وشرع فى ذكر أسماء أعجميّة وهو يغْرفُ من ذاكرته الهائلة تواريخ مذهلة ومستعملاً بلسان طليق ألفاظًا همجيّة لعلّها كانت من نسج خياله.

أفتتن تيمور ثمّ فقد صبره، وأوقف هذا السّيل الذى لم يقدر المُترجِم على متابعته، وقال:

- وكيف عرفت كلّ هذه الأمور؟

- بالسّفر وبالحديث مع التجّار الثّقاة الواردين، وبالإنصات إلى كلّ الذين يتاجرون ويجوبون الأصقاع وينتقلون من بلد إلى آخر ومُقَابَلة أقوالهم بعضًا ببعض، عرفت من المحاربين والشّعراء، والنّسّاك والرّعاة، والنّديمات المتجوّلات والوزراء المخلوعين، وأنا حَسَن الاطّلاع كما ترى، إذ استطعتُ أن أرسم الخطوط الكبرى فى حياتك، ولم يَفُتْنى أن أذكر الرّؤيا التى ظهر لك فيها والدُك...

- كفى!

اكتسحت المائدة موجة من الرّعب، وتقلّصت رقاب الضّيوف بين أكتافهم.

أضاف تيمور قائلاً بلهجة لا تقبل النّقاش:

- أيّها الرّجل النّفيس من بين كلّ الرّجال، أُقْسِم أنّك لن تُفَارقنى أبدًا، أحتفظُ بكَ لنَفْسِى وأُبْقيكَ معى، أنت جزء من فِديَة دمشق، ونظرًا إلى قيمَتك فلن تهلك دمشق البتّة.

ضحك ابن مُفْلح ضحكة متشنّجة سُرْعان ما كَتَمَها، ولم يُعلم ما إذا كان يقصِد بها تيمور أم خلدون.

أطبق هذا الأخير أجفانه الطّويلة وكان تَبين من صوته ارتعاشةٌ هى مزيج من الدّهشة والمرح واكتفى بالقوْل:

- أيّها السيّد الباهر، حقًا إنّك منّى بمنزلة الثروات والأصدقاء والعائلة والوطن، ليست جلالة الملوك الذين لهم التسلّط شيئًا بالقياس إلى جلالتك؛ إذ إنّك حُزت كلّ الخصال الفائقة التى كانت سببًا فى جدارتهم ومزاياهم المختلفة، أيّها السيّد الخارج عن المعتاد، تريد منّى إذن أن أستعيض بالحقيقة عن السّراب، وأن أدخل فى كنف حياة جديدة، لماذا تركنى الحظّ المتقلّب بعيدًا هذا الزّمن كلّه من إشعاعك؟

بذلك ختم خلدون قوله فى سوْرة من الحماس المتأجّج، وفجأة انبسطت قسماتُ وجهه واكتسى وجهه المنير مسحة من الكآبة، وواصل حديثه بتؤدة وبصوت مُؤثّر ومُنفعِل:

- إنّ ما يحزّ في نفسي هو أنّه تعوزني هنا المخطوطات التي قضّيت في تأليفها أكثر سني حياتي ثراء وكثافة وغزارة، تاريخ العالم هذا هو جزء منّي لا يتجزّأ، هو ثمرة أَنْفَسُ ما في جَوْهري، وعُصارة دماغي وما اصطفيته من معارف الرّوح كافّة، والآن بلغت الغاية من القدْر الذي يعيشه الرّجال، فيكفي أن ينتزع ملَك الموت الرّوح منّي حتّى يمتنع على مُنْشئ هذا الكتاب، الذي كان يُراد له أن يكتب له الخلود، أن يُصحّحه وينقّحه إلى أن يُقارب الكمال. آه أيّها السيّد الشّهم، لتكن صحائفي بين يديّ، فأتمكّن من أن أضيف إليها تلك التي ستُثبّت مكانتك للتصدّر على عرش الزعماء العظام الذين يقودون الشعوب إلى المجد، ولأمت بعد ذلك!...

كان المترجم يَلهث ويضرب بساقه الأرض من فرط الحماس، وَفَغَر الحضورُ أفواهَهم من شدّة ما أدهشهم هذا الممثّل وهو يلعب دورًا تمتزج فيه المأساة بالمهزلة الملحميّة، أمام تيمورلنك المفْتُون الذي أسَرَهُ كلام خلدون السّاحر، وبالخارج هلّلت موجة عارمة من الحشود وصفّقت إعجابًا بخلدون، وهم الأسياد في إضرام النّيران والسّلب والنّهب...

كان خلدون يخطب بلهجة متّزنة وسَلِسَة وكأنّه في حلم، بكلمات سهلة يدركها كلّ واحد.

- ... أنت من أعلن الأنبياء عن مجيئه، أنت من دلّت عليه ألواح التّنجيم والجفر، في كتاب نبوّات عليّ أمير المؤمنين، أنت من كانت

ولادته عند قِران الكواكب وتُدعى صاحب القرون، أى سيّد القرانات...

مرّت لحظة من الزّمن، قصيرة جداً ورائعة كتم الجَمْعُ فيها أنفاسه...

قال تيمور فجأة:

- اذهب وانت بمخطوطاتك، وَعُد.

الهروب الأخير

أُركضْ، أيّها الماكر الدّاهية ، اركضْ! المهماز بقوّة... آه ! يا للمهاميز الشّاميّة الجيّدة!

كان خلدون يحثّ حصانَه على العدو بلا هوادة وكان يُناجى نفسه، ولم يكن يعبأ كثيرًا برفاقه فى هذا العدو، وكانوا عددًا من السّجناء الأشراف انتزعَهم من تيمور بِرِضَاه.

شدّ تحت برنسه الدّاكن على مكتوب الأمان النّافع والمنجّى على الإطلاق، وهو قطعة من الرقّ السّميك خُتم عليها بِاسْم رهيب: تيمور- غرغان، صهر عديد الملوك.

وكان فى اللّيلة الماضية أن وجد أعيان دمشق وشخصيّات مِصْر من أهل التدّين والورع، مُعَلّقين يتدلّون فى أطراف الحبال، فذاقوا بذلك بدايات مشاهد الشّنْق على الأسوار المظلمة، وفى فجر الأمس

هرع المفاوضون وفَرَائصُهم ترْتَعِد خوفًا إلى معسكر التّتر وحسائهم. ومنذ منتصف النّهار ادّعى طاغية متوحّش أنّه أمْسَك فى قبْضته على خلدون، هذا الثّعبان وهذا القطّ!

عجبًا! يبقى فى ربقة هذا الضّارية، الجاهل الأمّى، ويهيم من مخيّم إلى مخيّم يتنشّق رائحة اللّحم المتعفّن والمحترق فى الحروب، بينما كان جِسْمُ حبَّة الملك الغضّ النّدىّ وبشرة البُنَيّة النّاعمة ينتظران لذّة الرّجل وقُبلة الأب، ويعبق حولهما طيب النّيلوفر وأقراص البخور الذى يعدّه بائعو الأعشاب بالقاهرة!

قال له الهمجىّ السّاذج:

- اذهب،... وعُدْ إلينا.

كان الفُرْسان يَعْدُون، لاذوا كالجُبناء بالفرار، وعلى رأسهم خلدون، كانت جيادهم تركض بهم نحو البحر، بحثًا عن مرفأ وزورق صغير.

وفجأة اضطرمت السّماءُ وراءهم على امتدادها، ثمّ غطّتها سحب مكفهرّة حارّة تتخلّلها فجوات تتشيّط أو تبدو وكأنّها تُمْطر رمادًا.

توقّف الفرسان هنيهة، وكأنّهم أُشِيرَ عليْهم فجأة بالوقوف، وكأنّهم تردّدوا بين الحرّيّة المستردّة وبين ويلات دمشق التى تَحْتَرق هنالك.

بَقوا متردّدين...

فكّر خلدون وقال لنفسه:

- غَيّر تيمورلنك رأيَه، لا بدّ أنّه حملهم على دفع الفِديَة المقَدّرة، ثمّ طلب منهم زيادة على المقدار المعيّن أو لعلّه اكتفى بأن انساق إلى صنيعه المعتاد، أفهلْ نَسِيتُ أن أطلب أمانًا لابن مُفْلِحٍ؟

- ثمّ استأنف عَدْوِه صَوْبَ البحر.

اختتام

اللّيلة العاشرة من شهر رمضان.

بدأت المدينة تنفض عنها بفتور خمود الصّيام، التى يجعلها منذ الفجر نائمة خاملة ناعسة.

يترقّب النّاس الآذان سواء كان دافعهم فى ذلك التّقوى أو العادة، ويترقّبون بهدوء وعلى ظمأ، وعند سماع صوت المؤذّن يقرّبون من شفاههم فَمَ النّارجيلة والقدح الممتلئ والثّمرة.

- هل أنت مُولع بالفأل والإنذارات، يا بساطى؟

- أيّها منها؟... إنّك ستخسر!

- سيكون ذلك جزاء عادلاً لقُدوة سوء، إذ إنّ القمار والشّهوات حَرَامٌ فى رمضان.

- ولكنّك تُرجُمان ذكىّ تَعْرف كيف تعبّر عن الأمور اللّاهوتيّة المشتبهة، يا قاضى قضاة المالكيّة بالقاهرة!

- كان ذلك بالأمس، أمّا اليوم فأنت القاضى، لا ينبغى لنا أن نخطئ ونخلط.

- العب.

- لو أنّ أحدًا تنبّأ لى بمئات الخِيَانات وكلّ الحيل المحكَمة التى كانت فى حياتى السّياسيّة لكنت ابتهجت بذلك كثيرًا دون أن أصدّق، لا يَسَعُنى أن أُنْكر مَيْلى إلى أصحاب العرافة والرّقيا، فلو أنّ أحدًا منهم...

- ... أو أنت نفسك...

- ... تنبّأ بنهايتى فى بعض أهلّة رمضان...

- لكنتَ تشُكّ فى ذلك.

- لا يا بساطى، فقد وُلدت فى شهر رمضان، وأخى يحْى قُتل من أجلى فى ليلة من ليالى رمضان، وفى رمضان غادرت مأواى بتاوغزوت، وسافَرْت قاصدًا مكّة فى بداية رمضان، وهو الوقت نفسه الذى شهد نهاية نَفْيِى بالفيّوم وإرجاعى إلى منصب القضاء، ثمّ رمضان الذى كان بعْد أن أحْرَق صديقى تيمور دمشق ونَهَبَها، والذى أصبحت فيه قاضى القُضاة مرّة أخرى...

حرّك خلدون بَيْدَقًا فوق الطّاولة الصغيرة ذات الأشكال المتناظرة، واستنشق الهواء ثمّ حدّق فى سَماء الأصيل الصّافية.

- بساطى ، بساطى، يا شريكى العزيز، يا له من قمر ندىّ فى هذا الرّبيع!

- ها أنّك قد فُزْتَ!

- إذن سأعوّضك فى منصب قاضى القُضاة للمرّة الخامسة، وفى رمضان أيضًا.

- إلى متى؟

هناك طفلٌ، وامرأتان مُحْتَجِبتان، وضريحٌ كلّه من الخَزَف الأزرق.

الطفل يَلْغُو، وحبّة الملُوك تتحدّث عن أمور الدّنيا إلى جنّيّة عجوز من الفيّوم.

ذلك أنّه فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ (١٦ مارس ١٤٠٦) توفّى ابن خلدون.

المؤلفة فى سطور:

السيدة مثالى بوانار

زوجة الطبيب پيار كريسپان (Pierre Crespin) الذى عاش بالأورس فى الجزائر. ولدت بفرنسا سنة ١٨٨٢ وقضّت حياتها بجنوب الجزائر وفى بسكرة بصفة خاصّة، وقد سكنتها منذ ١٩١١. وتوفيت سنة ١٩٤٥. تعلّمت اللّغة العربيّة وشغفت بتاريخ المغرب والحياة فى الصّحراء، واهتمّت فى كتاباتها بالعالم الإسلامى والنّساء بصفة خاصّة.

المترجم فى سطور:

مقداد عرفة منسية

- أستاذ الفسلفة العربيّة الإسلاميّة بكلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعية بجامعة تونس من مواليد سنة ١٩٥٠.
- حاصل على:
- أستاذية الفلسفة من كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بجامعة تونس، سنة ١٩٧٢.
- دكتوراه المرحلة الثالثة من جامعة السوربون، سنة ١٩٧٦.
- تأهل فى الفلسفة من جامعة تونس، سنة ١٩٩٦.
- نشر:
- دراسات عديدة فى الفكر العربىّ الإسلامىّ: الفلسفة وعلم الكلام والتصوّف منها: علم الكلام والفلسفة، تونس، ١٩٩٥.
- ابن رشد فيلسوف الشرق والغرب (إشراف)، تونس، ١٩٩٩.
- الفارابى: فلسفة الدين وعلوم الإسلام، بيروت، ٢٠١٢.

التصحيح اللغوى: هبة على

الإشراف الفنى: محسن مصطفى

رواية تعتمد معطيات التَاريخ لتقدَمها بطريقة تضفي عليها الحيويَة. لذلك كان من الطَبيعي أن يرد فيها جانب من وحي الخيال. ووردت مطابقة في معظمها للمصادر وفي جزء منها مخالفة لها. وتتمثَل هذه المخالفة الموجودة بين الرَواية ومعطيات التَاريخ في طريقة تقديم مجريات حياة ابن خلدون،وفي انتقاء عناصر منها دون أخرى لتأليف الرَواية. وقد أشرنا أحيانًا إلى نقاط الاختلاف وأهملنا ذكرها أحيانًا أخرى، إذ ليس همنا هنا هو تصحيح ما ورد في الرِواية. ويبقى في وسع القارئ، إن شاء، أن يقوم بذلك بالرجوع إلى كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا وتاريخ ابن خلدون والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ونفح الطَيب من غصن الأندلس الرَطيب للمقَري التَلمساني.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح